المهرج .. وقصص قصيرة أخرى

المهرج .. وقصص قصيرة أخرى
ألبرتو مورافيا
تقديم ومراجعة: أحمد رجب
الطبعة: ٢٠٢٣

العربية للاعلام والفنون والدراسات الانسانية والنشر

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور - الهرم – الجيزة - مصر
هاتف: ٣٥٨٦٧٥٧٦ – ٣٥٨٦٧٥٧٥

http://www.azhabooks.com
E-mail: info@azhabooks.com

بطاقة فهرسة أثناء النشر

ألبرتو مورافيا. – تقديم ومراجعة: أحمد رجب – المهرج وقصص قصيرة أخرى
– الجيزة – أزهى، ٢٠٢٢
١٨٥ ص، ١٨*٢١ سم.
الترقيم الدولي: ١ – ٨ – ٨٦٤٦٤ – ٩٧٧ – ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع: ٧٢٩١ / ٢٠٢٣

ألبرتو مورافيا

المهرج

وقصص قصيرة أخرى

تقديم ومراجعة

أحمد رجب

تقديم

كان البرتو مورفافيا الكاتب الإيطالي الشهير غزير الإنتاج، فلم يكن من السهل إحصاء كل ما كتبه، ولكن يمكن الإشارة إلى أبرز أعماله، ومنها ما نقلته السينما ومعظمه ترجم إلى شتى لغات العالم ومنها اللغة العربية بالطبع، مثل رواياته، "العصيان" و"الحب الزوجي" و"امرأة من روما" ثم بخاصة "اللاممتثل" التي نقلها برتولوتشي إلى فيلم سينمائي حمل الاسم نفسه ويعد من أجمل ما قدمته السينما الإيطالية، وإلى "امرأتان" التي حولها "دي سيكا" إلى فيلمه الرائع المتميز، ثم "الاحتقار" التي كانت من أفضل أفلام جان – لوك غودار، و"السأم" وغيرها. وكان هناك أيضا، "حكايات رومانية" و"أقاصيص من روما".

وبالإضافة إلى رواياته ومجموعاته القصصية، تمرس مورافيا في أدب الرحلات، وشارك في الاهتمام بالقضايا السياسية وظل حتى آخر سنوات حياته يناضل في سبيل البيئة وضد انتشار السلاح النووي، هو الذي غلب على شخصيات أدبه طابع اللامبالاة والحياد السلبي والرغبة المخبوءة في تدمير العالم وصياغة علاقات لا تستجيب للنظم الاجتماعية.

لذلك كله لم يكن غريباً في الحقيقة أن يقول ناقد إنجليزي كبير عن أدب مورافيا، "إن ألبرتو مورافيا صاحب أدب وجودي عبثي، روعته أن وجوديته وعبثيته لا تظهران إلا للمنقبين بدقة". وكان من الغريب أن المنقبين لم يكونوا كثراً، على عكس القراء الذين كانوا منتشرين في العالم ويقرأونه بلغته

الإيطالية الجميلة، ولكن أيضاً مترجماً إلى عدد كبير من اللغات متوخين المتعة أكثر من الفهم. وهم لو توخوا التعمق كانوا سيجدون المتعة مضاعفة.

وقد عاش مورافيا أغلب حياته في مدينة روما وعرف أسرارها وخباياها، لذلك جعل منها مسرحا لأغلب قصصه، فكل قصصه إذن هي قصص من روما، فكان طبيعيا أن تظهر في كتبه ابتداء من عنوانها، ومن أشهرها رواية "امرأة من روما" التي أصدرها في عاك ١٩٤٧ عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية، وفيها يقوم بتعرية الطبقة الوسطى الإيطالية وإظهار تناقضاتها الاجتماعية و الأخلاقية، ومنها أيضا كتابه "حكايات من روما" وهو مجموعة قصصية أصدرها في سنة ١٩٥٤، وتتكون من سبع قصص و حكايات تبين كل واحدة منها مظهرا من مظاهر مجتمع المدينة القديمة، ومما يميز أدب مورافيا بشكل عام، وهذه المجموعة القصصية بشكل خاص تلك القدرة الكبيرة لمورافيا على سرد مواقف تكشف عن المشاعر والرغبات الجنسية لدى أبطاله، والأحداث التي تنشأ عبر تلبية تلك المشاعر والرغبات، وفيها يبتعد عن طابع الإثارة السطحية، غير أنه يمتاز بالتركيز على التحليل النفسي لنوع العلاقة بين الجنسين أو الزوجين.

* * *

ولد مورافيا عام ١٩٠٧ (اسمه الاصليّ: ألبيرتو بنكيرلي ومن غير المعلوم على وجه الدقة يوم وشهر الميلاد لكن المؤكد أن ميلاده كان في عام ١٩٠٧) لأسرة من الطبقة المتوسطة الأب هو المهندس المعمارى والرسام اليهودى كارلو والأم مسيحية كاثوليكية تدعى تيريزا إجينيا دى مارسانش.

ولم يكمل ألبيرتو دراسته لانّه اصيب بالسل الذي أقعده في الفراش لخمس سنوات لذلك، لم يتمكن من إنهاء التعليم التقليدى. بدلًا من ذلك، أمضى ثلاث سنوات فى المنزل والعامان المتبقيان فى مصحة. وقد كان قارئًا شرهًا، ومن بعض مؤلفيه المفضلين: دوستويفسكى وبوكاتشيو وجويس وجولدونى وشكسبير وموليير ومالارمو، وتعلم أيضًا اللغة الفرنسية ودرس اللغتين الإنجليزية والألمانية، وكان يكتب قصائده بثلاث لغات هي: الإنجليزية والفرنسية والإيطالية.

ويقال أنه كتب أول قصائده وهو في الثالثة عشرة من العمر، واختار بعضها للنشر في أول كتبه وهو مجموعة شعرية بعنوان «١٨ قصيدة»، وأعقبها بنشر روايته الأولى «اللامبالون» التي نشرها وهو في الثانية والعشرين من عمره، وقد حققت له نجاح وشهرة كبيرين ومفاجئين ومبكرين. ويتناول فيها الفلسفة الوجودية، من خلال حديثه عن أسرة من الطبقة المتوسطة دب فيها الفساد الأخلاقي وصورها وهي تساعد الفاشية الإيطالية، و أعقبها برواية (السأم) وهي رواية فازت بأكبر جائزة أدبية في إيطاليا (جائزة فيارجيو)، و(دولاب الحظ) نشرت سنة ١٩٣٩.

وعمل صحفياً في مجلة ٩٠٠، التي نشر فيها قصصه الأولى، مثل اللصّ الفضولي وظهور.

سنة ١٩٦٧ سافر "ألبيرتو مورافيا" إلى الصين واليابان وكوريا الجنوبية، وفي سنة ١٩٧٢ زار إفريقيا حيث كتب "إلى ايّ قبيلة تنتمي؟" ونشرت في نفس السّنة ثم في سنة ١٩٨٢ زار هيروشيما في اليابان.

سنة ١٩٩٠ وجد "ألبيرتو مورافيا" ميتاً في حمام بيته في روما في نفس السنة نشرت سيرته الذاتية (حياة مورافيا).

* * *

بلغت شهرة البرتو مورافيا حدا كبيرا مما دفع كبريات الصحف والمجلات الإيطالية للتعاقد معه من أجل رواياته على شكل حلقات مسلسلة فى الصحافة، وتم نفس الأمر بالنسبة لكتبه السياسية، وكتاباته في أدب الرحلات، و حتى في رسائله، ومقالاته النقدية، و أجريت معه حوارات مطولة حول مواقفه العلنية المناهضة للحرب والرأسمالية والاستغلال والقمع والتهميش والعنصرية.

فلم يكن يخفي مواقفه وكان من اشد المعارضين للفاشية فى أعماله والروائية التى انتقد فيها المجتمع البرجوازى فى عصره على الرغم من انتمائه لهذا المجتمع، تعاون مورافيا مع صحيفة «لا ستامبا» فى عام ١٩٣٠،، بدأ النشر فى مجلة «اليوم والشخصيات» فى عام ١٩٣٣. وسافر إلى الولايات المتحدة إثر تلقيه دعوة من إحدى جامعاتها لتقديم محاضراتٍ عن الأدب الإيطالى فى عام ١٩٣٥، وهو نفس العام الذي واجهت فيه مقالات مورافيا حظرًا من جانب النظام الفاشى في إيطاليا.

ولتجنب الرقابة الفاشية، ناقش فى كتابه الأنواع السريالية وجادل فى ذلك واستخدم أسلوبا ساخرا لكن الرسالة وصلت إلى أقطاب الفاشية . وصادروا الطبعة الثانية من «الحفلة التنكرية»، مما اضطره فى عام ١٩٤١ للكتابة تحت اسم مستعار، وذلك بعد منع النظام الفاشى روايته التى «المراهقان» من النشر.

وتم التضييق عليه وخشى أن يتم اعتقاله فاختبأ في مدينة فوندى، بالقرب من لاتسيو، بعد الهدنة فى عام ١٩٤٣. وعاد إلى روما فى شهر مايو عام ١٩٤٤، حيث تعاون مع السيناريست والصحفي الشهير كورادو ألفارو، ونشر مقالاته في صحف عديدة مثل «موندو» و«كورييرديلا سيرا».

كما اشترك مورافيا فى تحرير صحيفة "شعب روما" اليومية، إلا انه واجه صعوبات شديدة وحصارا خانقا من السلطات الفاشية، وتلقى تحذيرات من مقربين بأن الجستابو (البوليس السري الألماني) يخطط لاغتياله، فاضطر سنة ١٩٤٣ للهرب ثانية الى جبال تشيوتشيا رو التى استلهم منها فيما بعد أحداث وفضاءات روايته الفلاح .

* * *

وبعد الحرب العالمية الثانية اتسعت شهرة مورافيا الأدبية على مستوى العالم، وترجمت رواياته الى العديد من اللغات الحية، وربما كان تمرده على مجتمعه الذى ينتمى اليه من اهم العوامل التى ساعدت على شهرته وذيوع صيته. مما شجع مورافيا على الاستمرار في الكتابة، فتوالت كتبه حتى وفاته في عام ١٩٩٠، وكان آخر كتبه هو "حياة مورافيا" وفيه يقر بأن وعيه تشكل إثر محنتين الأولى إصابته بمرض سل العظام الذي أصابه في طفولته، ثم الفاشية التي غزت ايطاليا منذ العشرينات وحطمت روحها. ومن المعروف أن وعي مورافيا قد اكتمل عبر رد فعله على هاتين المحنتين، ما جعل أدبه التالي كله بمثابة رد فعل على صدمتهما للجسد والروح.

وفى عام ١٩٨٦ اختير ألبرتو مورافيا نائباً فى البرلمان الأوروبى عن الحزب الشيوعى الإيطالى. وُجد مورافى ميتاً فى حمّام شقّته فى ٢٦ سبتمبر ١٩٩٠. وفى العام نفسه كتب الكاتب الإيطالى الشهير لويجيو بومبانى سيرة ألبرتو مورافيا الذاتية. وفى عام ٢٠٠٧ تم الإعلان عن اكتشاف رواية جديدة للروائى الايطالى ألبرتو مورافيا حيث تم العثور على مخطوط رواية قديمة غير منشورة له وعنوانها: الصديقان، وقد عثر على مخطوط الرواية القديمة غير المنشورة فى قبو منزل الكاتب.. وتتضمن اعترافات وحقائق حول حياة مورافيا وقد كتبها عام ١٩٥٠.

وقد اخترنا ثمانية عشر قصة، يضمها هذا الكتاب، الذي نقدمه لمحبي الأدب الإيطالي بعامة، وأدب ألبرتو مورافيا خاصة، وتتجلى في هذه القصص أبرز سمات أسلوب مورافيا، ومنها إحكام السيطرة على الحدث، والتركيز على معطياته وتفاصيله المختصرة والمؤثرة في سير السرد القصصي، ففي قصة "المطر في شهر مايو" يرسم لك "مورافيا" فيصور أسرة رجل ديكتاتور، متزوج من امرأة ضعيفة، ولكن ابنتهما تشعر بجمالها، ومن ثم فإنها تتمرد على الاستعباد، وتحاول أن تغوي رجلا ليساعدها في التخلص من أبيها.

وفي قصة "أنا لا أقول: لا"، يحلل أسباب تفكك الأسرة بسبب العناد والجدال بين الزوجين، في أتفه الموضوعات.. وهو عيب يصيب الحياة الزوجية في كل مجتمع، وكثيرا ما يؤدي إلى انهيارها. وفي قصص: "سائق اللوري" و"الممرضة"، و "الأحمق المسن" يقدم "مورافيا" صورا رائعة لحياة الطبقة الدنيا في إيطاليا.

هكذا يرسم مورافيا المعطيات مثلما هي، بل يحرص على نقلها بشكلها المألوف في الذاكرة، فهو يتقدم أولاً نحو العام ثم يشرع في تفكيك هذا العام بمستويات بطيئة، مع الإمساك بالمفاصل المهمة للمرئي، لينشئ من خلالها حبكته غير المتوقعة، فحين يضع أمامنا الأمور المعلومة التي تشبه القوانين يأتينا بنتائج غير متوقعة عبر لغة شبه مألوفة يصلح وصفها إصطلاحاً بلغة الواقع، لكنه سرعان ما يعطي رشقات من المغايرة في أسلوبه تحفّز الذهن وسرعان ما تُقبل بل وتنسجم مع المتغيرات الصورية بين منحنيات الأسلوب ففي قصة «الطفل» يقول مورافيا: «عندما زارتنا السيدة الفاضلة مندوبة جمعية رعاية الأحداث طلبت منا بيان أسباب إنجابنا لهذا العدد من الأطفال بعدما رزقنا بالطفل السابع. أخبرتها زوجتي بالحقيقة حين قالت لها «لو كان في استطاعتنا أن نملك مالاً لأمضينا أمسياتنا في السينما أو في نوادي الترفيه، وإذ لا مال متوافراً نذهب إلى المخدع الزوجي باكراً».

وتؤكد قصص هذه المجموعة قيمة ألبرتو مورافيا كأحد الكُتاب الكبار للقصة القصيرة ذات الاتجاه الواقعي، رغم ما تتمتع به مخيّلته من خيال خصب وقدرة على خلق المصادفات المؤثرة في العمل القصصي، فقد كانت الحاجة ماسة لإيجاد حلقة وصل بين المشاكل النفسية التي عاناها المجتمع الغربي ومشاعره الإنسانية بعد الحربيين العالميتين، فضلا عن حاجة مورافيا لتوظيف قدراته ضمن هذا الاتجاه الذي وجد فيه ضالته لمواجهة إشكالياته الفنية التي ترفض التحرر من أسلوبه الرمزي وخياله المنفلت.

المهرج

كان قراري في ذلك الشتاء ألا أترك عملاً دون أن أجربه، فأخذت أطوف بالمطاعم عازفًا القيثارة في صحبة صديق لي يقوم بالغناء. وكان هذا الصديق يدعى ميلوني كما كان يطلق عليه أيضًا لقب الأستاذ" لأنه سبق وأن قام في وقت من الأوقات بتدريس الألعاب الرياضية السويدية. كان رجلاً ضخمًا يناهز الخمسين من عمره. ولم يكن بدينًا على وجه التحديد بل مصمتًا ممتلئ الجسم ذا وجه حزين متجهم وجسم ضخم مصمت يجعل المقاعد تصر عند جلوسه عليها.

وكنت أعزف القيثارة طبقًا لرأيي فيها أي بطريقة جادة مخفضًا عيني لا أكاد أتحرك لأنني فنان ولست مهرجًا. ولكن ميلوني هو الذي كان يقوم بدور المهرج, فكان يبدأ بطريقة عارضة فيقف متكئًا على حائط وقد جذب قبعته فوق عينيه ووضع إبهاميه في فجوتي الذراعين من صديريته وبرز كرشه في أعلى سراويله بشدة حزام من الجلد. فكان يبدو كرجل مخمور يغني للقمر. ثم يتحمس تدريجيًا – رغم أنه لم يكن يغني في الحقيقة لأنه كان يفتقر إلى الصوت الجميل وإلى الأذن الموسيقية معًا – وينتهي به الحال إلى جذب انتباه الجمهور جميعًا أو الأحرى – كما قلت إلى القيام بدور المهرج. وكان اختصاصه الأغاني الروائية العاطفية بل أشهر ما فيها أي الأغاني التي تحرك المشاعر وتنتزع الدموع من العيون، ولكن هذه الأغاني لم تكن تحرك المشاعر مطلقًا وهو يغنيها بل الأحرى إنما كانت تضحك الناس لأنه كان يعرف كيف

يجعلها تبدو مثيرة للسخرية بطريقة كئيبة منفرة من خلفه هو.

لست أدري ماذا حدث لهذا الرجل – وما إذا كانت امرأة ما قد أساءت معاملته في شبابه أو ما إذا كان قد ولد هكذا ذا طابع من ذلك النوع الذي يلذ له أن يسخر من كل ما هو رقيق وجميل. ولكن تبقى هناك حقيقة واحدة وهي إنه لم يكن شخصية فحسب. كلا. بل كان يبث في عمله نوعًا من عنف العاطفة مما يتطلب من الناس المشغولين بتناول الطعام كل ما لديهم من تبلد وعدم اكتراث. ليدركوا أن عمله لم يكن مضحكًا بقدر ما كان مؤلمًا. ولشد ما كان يتألق بوجه خاص عندما يقلد حركات النساء الدقيقة وحيلهن ونظراتهن المتكلفة. ماذا تفعل المرأة؟ هل تبتسم في دلال؟ فيوحي هو من تحت حافة قبعته ببسمة سمجة لامرأة ساقطة. هل تهز رد فيها قليلاً؟ فيؤدي هو رقصة البطن مبرزًا عجزه إلى الخلف محاكيًا صرة الجندي في متانتها وتربيعتها. هل تجعل صوتها رقيقًا حلوًا؟ فإذا به يضم شفتيه محدثًا صوتًا رفيعًا شرابيًا كصوت الناي مما كان بلا شك يبعث على الغثيان.

وفي الواقع فإنه لم يكن يعرف الاعتدال بل كان يبالغ دائمًا في كل حركاته حتى تصير فاحشة منفرة حتى أنني كنت في الواقع أشعر بالخجل لأن هناك فارقًا بين مصاحبة مطرب على القيثارة وبين الاشتراك مع مهرج. وعندئذ كنت أتذكر أنني قبل ذلك بزمن ليس ببعيد كنت أعزف هذه الأغاني نفسها من شدو فنان رقيق بطريقة جادة. وكان يشقيني أن أراها تبتذل على هذه الصورة فتصير فاحشة لا يمكن أن يتعرف عليها أحد. وقد صارحته بذلك ذات مرة بينما كنا نهرول خلال الشوارع من مطعم إلى آخر. سألته قائلاً: "ولكن ماذا فعلت لك النساء"؟ وكان كعادته بعد أدائه دور المهرج

حزينًا شارد الذهن وكأن جميع الخواطر الغريب كانت تمر بذهنه – فقال "لي؟ أنهن لن يفعلن شيئًا لي". فوضحت له سؤالي قائلاً: "إنني أسألك هذا السؤال لأنك تبث كثيرًا من العاطفة والحماس في السخرية منهن". فلم يحر جوابًا وكانت هذه خاتمة الحديث.

ولو لم يكن في مصلحتي البقاء معه لتركته لأنه كان ببذاءاته – رغم أن هذا يبدو مستحيلاً – يجمع المال أكثر مما كان يجمعه كثير من المطربين المتجولين ذوي النفوس الرقيقة بأغانيهم الجميلة. وكنا في معظم الأحيان لا نطوف بالمطاعم الفاخرة بل الأماكن التي تفوقها بساطة وتقل عنها جمالاً ولكنها مع ذلك ليست رخيصة بحال من الأحوال – تلك الأماكن التي يقصدها الناس ليملئوا بطونهم ويقصدوا بها وقتًا سعيدًا. وكنا لا نكاد ندخل المحل في غير ضوضاء ولا أكاد أنا أخرج القيثارة من صندوقها حتى تنبعث صيحة واحدة من الموائد المحتشدة قائلة: "آه الأستاذ.. ها هو الأستاذ.. تعال هنا يا أستاذ". فيقدم ميلوني نفسه بوجهه المتجهم وعينيه الجاحظتين وهدوئه التام بينما تتزحلق قدماه على الأرض قائلاً: "في خدمتكم". وكانت تضحكهم عبارته هذه "في خدمتكم" للطريقة التي كان يقولها بها حتى أن الجميع كانوا ينفجرون ضاحكين.

وفي أثناء ذلك تصل المكرونة الأسباجتي، وبينما يقوم النادي بتوزيعها راكضًا يعلن ميلوني في صوت ضئيل سخيف متكلف قائلاً: "سأقدم لكم أغنية روائية جميلة حقًا هي: "عندما تأتي روزينا من قريتها".. وسأقوم أنا بدور روزينا. "ولتتخيل مستخدمًا سخرياته وبذاءاته المألوفة وقد سادهم السكون وتدلت أعواد المكرونة "الأسباجتي" من شوكاتهم فتعلقت بين أفواههم

وصحافهم. وهم ليسوا بحال من الأحوال جماعات من القصابين أو أناسًا من هذا القبيل. بل كانوا جميعًا من المثقفين المهذبين — فكان الرجال يرتدون الحلل الزرقاء الداكنة ويضعون الزيوت في شعرهم ودبابيس اللؤلؤ في أعناقهم.

أما النساء فكن رقيقات يتكلفن الكثير في نفقاتهن فيرتدين الفراء ويتحلين بالمجوهرات العديدة. وكان يقول بعضهم للبعض أثناء قيام ميلوني بدور المهرج "إنه عظيم.. عظيم حقًا". أو يصيح شخص ما في انزعاج قائلاً: "والآن أرجو ألا تطوف بالجميع قائلاً أنك اكتشفته.. وإلا فستفسده علينا". ومن بين بذاءاته الأخرى أن ميلوني كان في إحدى أغنياته يحدث عند مقطع معين صوتًا خاصًا لن أحدده لكم وذلك مبالغة منه في إضحاك الناس من الشخصية التي يمثلها. حسنًا هل تصدقون ما كان يحدث؟ كانت أولئك السيدات الفاتنات الأنيقات أنفسهن يطلبن دائمًا إعادة تلك الأغنية.

ويجب أن أعترف بأن كل هذا التصفيق فد أدار رأس ميلوني إلى حد ما..كان يسكن غرفة مؤثثة مظلمة رطبة في منزل حائكة ثياب بشارع سيمارا وكنت كلما ذهبت إلى منزله لإحضاره وقتذاك أجده واقفًا أمام المرآة يجرب حركة جديدة منفردة أو بذاءة أخرى. وكان في مرانه هذا يلتزم الإتقان المتجهم كما يفعل الممثل العظيم الذي يستعد للقيام بدوره. وكنت أتساءل أحيانًا عما إذا كان به مس من الجنون وأنا جالس على الفراش أراقبه يؤدي رقصة البطن أمام المرآة القائمة فوق صوان الثياب. وذات يوم سألته قائلاً: "ألم يحن الوقت بعد لأن تبتدع شيئًا جذابًا. شيئًا مؤثرًا؟" فأجابني قائلاً: "أتعلم أنك لا تعرف شيئًا عن هذا.. إن الناس عندما يتناولون طعامهم

يريدون أن يضحكوا لا أن يتأثروا.. ثم أردف قائلاً: في عبوس – "وأنا أجعلهم يضحكون".

ولم يلبث بعد هذا مدفوعًا بنفس هذا الشغف بالتقدم المستمر أن فكر في أن يحمل معه حقيبة صغيرة بضعة ثياب نسائية –كقبعة صغيرة ووشاح وتنورة – ليرتديها في الحال كي يجعل هزلياته تثير مزيدًا من الضحك. وكان شغفه هذا بالتزين كالنساء يكاد يكون نوعًا من الجنون. وليس في إمكاني أن أعبر عن مدى ما كنت أشعر به من ألم عند رؤيته ينتفض هنا وهناك وقد جذب قبعته على عينيه وثبت التنورة في حزامه فوق سراويله. وفي النهاية وبعد أن أعيته الحيل الجديدة أراد مني أن أقوم أنا بدور المهرج أيضًا أثناء عزفي على القيثارة. ولكنني رفضت أن أفعل هذا.

وكنا نطوف بأكبر عدد ممكن من المطاعم من الثانية عشرة حتى الثالثة بعد الظهر ومن الثامنة حتى منتصف الليل. وكنا نطوف بها في مجموعات حسب الأيام. نغشى تارة المطاعم التي تقع على مقربة من بيازا دي سيانيًا وتارة أخرى المطاعم الواقعة في حي تراستيفير وحينًا آخر بالمطاعم القريبة من المحطة. ولم نكن نتحدث ونحن نهرول خلال الشوارع من مطعم إلى آخر. فلم تكن هناك مودة حقيقية بيننا. وما أن ننتهي من جولتنا حتى نذهب إلى أحد محال النبيذ حيث نقتسم النقود. ثم أدخن سيجارة في سمت بينما يجرع مليوني ربعًا من النبيذ. كان مليوني في فترة الأصيل يتمرن على أدواره الجديدة أمام المرآة بينما أذهب أنا لأنام أو لمشاهدة أحد الأفلام السينمائية.

وذات مساء دخلنا أحد محال النبيذ الواقعة خلف بيازا ماستاي أثناء

هبوب ريح الشمال الباردة بعد أن طفنا بمطاعم تراستيفير. دخلنا هناك بغرض تدفئة أنفسنا أكثر من تقديم عرض، وكان المحل يتألف من غرفة طويلة ضيقة تكاد تكون دهليزًا صفت فيها الموائد على طول الحائط وقد جلس إليها الناس ومعظمهم من الفقراء وهم يشربون نبيذ المحل ويأكلون أطعمة محزومة في أوراق الصحف.

ولابد أن الغرور هو الذي شجع ميلوني على استعراض نفسه في محل كهذا إذ لا يمكن أن تكون المصلحة هي التي دفعته إلى ذلك. وعلى أية حال فقد انتقى أغنية من أجمل أغانيه ثم أحالها إلى قطعة من القذارة بأسلوبه المعهود المليء بالهزأ والسخرية والحركات البهلوانية. وعندما انتهى منها سمع بعض التصفيق الفاتر ثم انبعث صوت من إحدى الموائد يقول: "والآن سأغنيها أنا لكم".

فاستدرت ورأيت شابًا أشقر وسيمًا كالملاك يتجه نحوي مرتديًا ثياب العمال الميكانيكيين بينما راح يرمي ميلوني بنظرات غاضبة وكأنه على استعداد لالتهامه. قال لي في لهجة آمرة "ابدأ. ولنعزف مرة أخرى من البداية تمامًا". وتظاهر ميلوني وقد ساوره الخوف بأنه متعب ثم سقط على مقعد بالقرب من الباب. وأشار إليَّ الشاب بأن ابدأ ثم أخذ هو في الغناء. وأنا لا أزعم أنه كان يغني كمطرب حقيقي ولكنه راح يغني بشعوره في صوت جميل دافئ رقيق.

لقد غنى في الواقع كما يجب أن يكون الغناء وبالطريقة التي تتطلبها الأغنية. وفضلاً عن ذلك فإنه كما سبق أن قلت وسيمًا للغاية بخصلات شعره الجميل وخاصة إذا ما قورن بمليوني الذي كان ضخمًا كئيبًا للغاية. وقد

استدار صوب داخل المحل وهو يغني محملقًا تجاه إحدى الموائد حيث كانت تجلس فتاة وحدها وكأنه كان يغني لها. وما أن انتهى من الغناء حتى أشار بيده الممدودة تجاه مليوني كمن يقول له: "ها هي ذي طريقة الغناء". ثم عاد بعد ذلك إلى المائدة وإلى الفتاة المنتظرة التي ما لبثت أن ألقت بذراعيها حول عنقه. والحقيقة ان تصفيق الجالسين له في محل النبيذ كان أقل مما فاز به مليوني ولم يفهم أحد ما الذي جعله يغني مطلقًا. ولكنني فهمت السبب في ذلك كما فهم مليوني.

وكنت أثناء العزف على القيثارة انظر كثيرًا إلى مليوني. وقد رأيته مرارًا يمر بيده على وجهه وتحت شعره الذي كان يتدلى فوق جبهته كمن يحاول جاهدًا أن يظل مستيقظًا في حين أنه كان يغفو في الحقيقة. ولكنه لم ينجح في إخفاء تعبير مؤلم لم أره على وجهه قط من قبل. وبدا لي أن هذا الألم كان يزيد كلما بدأ الشاب مقطعًا جديدًا من الأغنية. وأخيرًا نهض واقفًا على قدميه وهو يتمطى متظاهرًا بالتثاؤب ثم قال: "حسنًا. حسنًا لقد حان الوقت للذهاب إلى المنزل لأنام.. فقد غلبني النعاس تمامًا..".

وافترقنا عند ناصية الطريق بعد أن اتفقنا على الموعد المعهود لليوم التالي. أما ما حدث أثناء الليل فقد استنتجته فيما بعد. ولكن الأمر كله لا يخرج عن الافتراض. لقد قلت أن مليوني قد دار رأسه واعتقد أنه فنان عظيم من نوع معين في حين أنه لم يكن يعدو في الحقيقة أن يكون شخصًا تعسًا مسكيناً يقوم بدور المهرج ليضحك الناس وهم يتناولون طعامهم. ولذلك كانت سقطته بسبب تلك الحركة التي صدرت من الشاب الأشقر ذي الملابس العمالية أشد هولاً وأعمق أثرًا.

وأعتقد أنه أثناء أداء الشاب للأغنية رأى نفسه فجأة بلا شك لا كما كان يعتقد هو حتى ذلك الحين، بل كما كان في الحقيقة ضخمًا قبيحًا في الخمسين من عمره يضع على صدره مريلة أطفال ويتلو أشعارًا صبيانية. ولكنني أعتقد أيضًا أنه أدرك حتمًا أنه لن يستطيع الغناء حتى ولو تحالف مع الشيطان. بل إن كل ما كان يستطيعه في الحقيقة هو إضحاك الناس. وكانت الوسيلة الوحيدة التي يستطيع بها إضحاكهم هي السخرية والتهكم من أشياء عينة. وتصادف أن كانت هذه الأشياء هي نفس الأشياء التي لم ينجح قط في الحصول عليها في حياته.

ولكن الأمر كله كما قلت لا يخرج عن لافتراض. والشيء الوحيد المؤكد هو أن حائكة الثياب التي كان يسكن منزلها وجدته في اليوم التالي معلقًا بين النافذة والستار في المكان الذي يتدلى فيه عادة قفص الكناريا. وقد لاحظه المارة في شارع سيمارا عندما نظروا خلال النافذة ورأوا ساقين بقدميهما معلقتين في الهواء. وكان انتحاره عن حقد شأن جميع حالات الانتحار فقد أوصد بالباب بالمفتاح وحرك صوان الثياب تعلوه المرآة فألصقه به.

ومن المحتمل أنه أراد أن يراقب نفسه وهو يضع رأسه في عروة الحبل كما كان يفعل أثناء تدريباته التمثيلية. وعلى أية حال فقد اضطروا إلى كسر الباب فسقطت المرآة وتهشمت. وعندما أخذوه ليدفنوه كنت أنا الوحيد الذي شيعه ولكن بدون قيثارتي في هذه المرة. واضطرت حائكة الثياب إلى وضع مرآة جديدة ولكن كان مما خفف عنها إنها باعت الحبل بثمن معين لكل قطعة منه.

سائق اللوري

أقدم لكم نفسي، أنا يا سادتي رجل نحيل الجسم عصبي المزاج نحيف الذراعين طويل الساقين ذو بطن مستو لذلك تنزلق عنه سراويلي. وفي الواقع فإنني أمثل النقيض تمامًا لما تتطلبه مقومات سائق اللوري الكفء. هل نظرن أبدًا إلى سائقي اللوريات؟ إنهم جميعًا ضخام الأجسام عريضو المناكب مفتولو السواعد أقوياء الظهور والبطون. وذلك لأن سائق اللوري يعتمد بوجه خاص على ذراعيه وظهره وبطنه. فهو يعتمد على ذراعيه ليدير بهما عجلة القيادة التي يبلغ قطرها طول ذراع تقريبًا ويلزم إدارتها أحيانًا دورة كاملة في منحنيات الطريق الجبلي. وهو يعتمد على ظهره ليتحمل الإرهاق من الجلوس ساعات وساعات في نفس الوضع دائمًا بدون أن يأخذ الألم أو التصلب طريقه إليه. وهو في النهاية يعتمد على بطنه ليظل ثابتًا في رسوخ على مقعده كالصخر المدفون في الأرض.

يكفي هذا من الناحية البدنية. أما من الناحية الخلقية فإني أقل لياقة لهذا العمل. فسائق اللوري يجب أن يكون مجردًا من الأعصاب ومن النزوات ومن الحنين إلى الوطن أو المنزل ومن أية مشاعر أخرى رقيقة, فقيادة السيارات تثير الأعصاب وترهق البدن على صورة تكفي لقتل ثور. أما عن النساء فسائق اللوري كالبحار لا يجب أن يفكر فيهن إلا قليلاً، وإلا فإنه سيفقد عقله تمامًا مع السفر المستمر جيئة وذهابًا. ولكن الخواطر والمشاغل تملأ ذهني كما أنني أميل إلى الكآبة بطبيعتي وأحب النساء.

ومع ذلك، وعلى الرغم من عدم ملاءمة العمل لي فقد أردت أن أكون سائق لوري وتمكنت من الحصول على عمل في إحدى شركات النقل. وعينت الشركة مرافقًا لي يدعى بالوهابي ويجب أن أعترف بأنه كان حلفًا غبيًا حقيقيًا. وفي الواقع فإنه كان سائقًا ممتازًا، لا لأن سائقي اللوريات ليسوا غالبًا أذكياء ولكنه قد أسعده الحظ بالغباء حتى أصبح هو واللوري يكونان قطعة واحدة. ورغم أنه كان رجلاً يجاوز الثلاثين من عمره فقد كان لا يزال يتميز ببعض سمات الصبي المفرط في النمو، كان ذا وجه حزين ووجنتين مستديرتين وعينين صغيرتين أسفل جبهة منخفضة وفم كالشق يشبه فتحة الحصالة. كان لا يتكلم إلا قليلاً بل إنه في الواقع لم يكد يتكلم مطلقًا وكان يؤثر في الحديث عن طريق الزمجرة. وكان ذكاؤه لا يتألق إلا عندما يكون الأمر خاصًا بالطعام.

وأذكر مرة أننا كنا نشكو الإرهاق والجوع فدخلنا حافة في "أنري" في الطريق إلى نابولي. ولم يكن هناك من الطعام إلى الفول المطهو بجلد الخنزير ولم أكد ألمسه لأنني لا أميل إليه. بينما التهم بالوهابي طاسين ممتلئين ثم اتكأ إلى الخلف على مقعده وأخذ يحملق في لحظة بمهابة وكأنه يهم بأن يقول شيئًا هامًا. ثم صرخ في النهاية وهو يمر بيده على معدته قائلاً: "كان يمكنني أن ألتهم أربع صحاف أخرى مملوءة". تلك كانت هي الفكرة الخطيرة التي استغرقت كل هذا الوقت للتعبير عنها.

ولست في حاجة لأن أعبر لك عن مدى سروري عندما التقينا لأول مرة بإيتاليا وأنا في صحبة هذا الرفيق الذي كان من الممكن أن يكون مصنوعًا من الخشب. وكنا وقتذاك نعمل في الطريق من روما إلى نابولي وننقل معنا

جميع أنواع الحمولات المختلفة – الطوب والخردة ولفائف الصحف وخشب البناء والفاكهة بل كنا أحيانًا نحمل معنا قطعانًا صغيرة من الأغنام التي كانت تنقل من مرعى إلى آخر. وقد أوقفتنا إيتاليا عند تراسينا وطلبت إلينا وطلبت إلينا أن نوصلها إلى روما. وكانت التعليمات الصادرة إلينا تمنع بتاتًا توصيل أي شخص ولكننا بعد أن تفحصناها قررنا في هذه المرة أنها استثناء من تلك القاعدة. فأشرنا إليها بركوب السيارة فوثبت إلى أعلى بقدر ما أمكنها من رشاقة وسرعة حركة قائلة:

– فلنهتف ثلاثًا لسائقي اللوريات! ما أرقهم دائمًا؟

كانت إيتاليا فتاة مثيرة، وليس هناك لفظ آخر يمكنني أن أعبر به. فقد كانت تمتاز بخصر طويل ضامر على صورة لا يمكن تصديقها ومن فوقه صدر بارز في حدة، بل إنه كان سامًا بلا شك – يبدو من تحت ثوبها المحكم الذي كانت ترتديه عادة ويصل حتى ردفيها. كما أنها كانت ذات عنق طويل ورأس قهوائي صغير وعينين نجلاوين خضراوين. أما ساقاها فكانتا على النقيض من قامتها المديدة قصيرتين وملتويتين إلى حد ما فكانت توحي للعيون بأنها تمشي حانية الركبتين. فهي لم تكن جميلة في الواقع ولكنها كانت تمتاز بما هو خير من الجمال.

وقد تأكدت من ذلك خلال رحلتنا الأولى لأننا عندما بلغنا "سسترنا" وتولى بالوهابي القيادة وضعت يدها في يدي خلسة ثم عصرنا بقوة ولم تطلق سراحها حتى بلغنا "فيللتري" حيث تسلمت عجلة القيادة من بالوهابي. كان ذلك في الصيف وكانت الساعة قد بلغت الرابعة بعد الظهر وهو أشد أوقات النهار حرارة وكانت يدانا زلقتين من العرق.

ولكنها كانت من وقت لآخر ترميني بنظرة من عينيها الخضراوين الغجريتين وبدا لي أن الحياة قد بدأت تبتسم من جديد بعد أن ظلت هذه الفترة الطويلة لا تعدو أن تكون شريطًا من الأسفلت. لقد عثرت على ضالتي المنشودة – امرأة أفكر فيها. وقد توقف بالوهابي في الطريق من "سسترنا" إلى "فيللتري" وهبط من السيارة ليلقي نظرة على العجلات وانتهزت أنا هذه الفرصة لأطبع قبلة على فمها. وعندما بلغنا "فيللتري" تبادلت مكاني مع بالوهابي عن طيب خاطر. فقد أكتفينا في ذلك اليوم بتشابك أيدينا وبالقبلة التي منحتها إياها.

ومنذ ذلك الوقت فصاعدًا كنا نأخذ إيتاليا معنا من روما إلى "تراسينا" ونعود بها مرة أو مرتين في الأسبوع بانتظام. وكانت تنتظرنا في الصباح بالقرب من الأسوار حاملة معها دائمًا طردًا أو حقيبة. ثم تمسك بيدي طوال الطريق إلى "تراسينا" إن كان بالوهابي هو الذي يتولى القيادة. وعند عودتنا من نابولي تكون هي في انتظارنا في "تراسينا".

ومن هناك تركب السيارة ويبدأ تشابك الأيدي مرة أخرى كما تبدأ أيضًا القبلات المختلسة في أثناء اللحظات التي لا يستطيع فيها بالوهابي رؤيتنا حتى ولو كان ذلك على مضض منها. وباختصار فقد وقعت أسير هواها على صورة جدية. وكان ذلك يرجع بعض الشيء إلى مضي زمن طويل لم أغرم فيها بامرأة ما مما أفقدني هذه العادة. وقد أحببتها إلى حد أنه ما كان عليها وقتئذ إلا أن تنظر إلي بطريقة معينة فلا ألبث أن أتأثر تأثرًا عميقًا كالطفل حتى تطفر الدموع من عيني. ومع إنها كانت دموع الحنان فقد بدت لي ضعفًا غير جدير بالرجل وكنت أبذل عبثًا جهودًا هائلة لكبح جماحها.

وكنا أثناء قيادتي السيارة نتحدث في صوت خفيض منتهزين فرصة استغراق بالوهابي في النوم.

ولست أذكر شيئًا مما كنا نقوله – مما يدل على أن حديثنا لم يكن يتناول إلا أمورًا تافهة وفكاهات وأحاديث العشاق. ومع ذلك فإني أذكر أن الوقت كان يمر مسرعًا، حتى شريط الأسفلت من "تراسينا" الذي كان يبدو لي دائمًا أنه لا نهاية له كان يتلاشى وكأنه مسحور، وكنت أبطئ من سرعة السيارة إلى عشرين ميلاً أو خمسة عشر ميلاً في الساعة مفسحًا الطريق لكل وسيلة من وسائل النقل لتلحق بي وتسبقني – حتى عربات النقل الزراعية ومع ذلك فقد كنا نصل إلى نهاية الرحلة في الوقت المحدد تقريبًا حيث تهبط إيتاليا.

أما في الليل فكان الوضع خيرًا من ذلك، إذ كان يبدو أن اللوري يكاد يتحرك إلى الأمام من تلقاء ذاته بينما أقوده أنا واضعًا إحدى يدي على عجلة القيادة والأخرى حول خصر إيتاليا. وعندما كانت تبدو لي الأضواء الكاشفة للسيارات الأخرى عن بعد في الظلام وهي تضاء وتطفأ كنت أجد في نفسي الرغبة في الإجابة عن إشاراتها بأن أرسم بأضوائي كلمة ما تجعل الجميع يعرفون كم كنت سعيدًا. فأكتب مثلاً "إني أحب إيتاليا وإيتاليا تحبني".

أما بالوهابي فأما أنه لم يكن يلحظ شيئًا أو أنه كان يتظاهر بعدم الملاحظة. وفي الواقع فإنه لم يحتج قط ولا مرة واحدة على هذه الرحلات المتكررة التي تقوم بها إيتاليا. فكان يطلق زمجرة عند ركوبها بالسيارة على سبيل التحية. ثم يتحرك جانبًا ليسمح لها بالجلوس. وكانت تجلس في الوسط دائمًا إذا كان علي أن أراقب الطريق وأبلغ بالوهابي عما إذا كان الطريق

خاليًا وذلك عند اللحاق بسيارة أخرى. بل أن بالوهابي لم يحتج عندما أردت وأنا مفتون بها أن أكتب شيئًا يشير إلى إيتاليا على حاجز الريح الزجاجي.

فكرت في الأمر ثم كتبت بحروف بيضاء: "تحيا إيتاليا". ولكن بالوهابي كان من الغباء إلى حد أنه لم يلحظ قط المعنى المزدوج للألفاظ إلى أن سألنا بعض السائقين مازحين عما يمكن أن يكون السبب بحق السماء في أننا صرنا وطنيين إلى هذا الحد. عندئذ فقط قال لي وهو ينظر إليَّ فاغرًا فاه وقد أشرق وجهه بابتسامة: "هم يظنون إنها إيطاليا في حين إنها الفتاة في الحقيقة.. إنك رجل ذكي وكانت فكرتك هذه بارعة".

واستمر كل هذا شهرين أو يزيد. وذات يوم بعد أن تركنا إيتاليا كالمعتاد في "تراسينا" وذهبنا إلى نابولي تلقينا أوامر بتفريغ الشحنة والعودة في الحال إلى روما بدلاً من قضاء الليل في نابولي, فتكدرت لهذا إذ أننا كنا على موعد مع إيتاليا في الصباح التالي. ولكن هكذا كانت التعليمات. فتوليت أنا القيادة وما لبث بالوهابي أن انبعث غطيطه. وسار كل شيء على ما يرام حتى بلغنا "أتري" لأن الطريق كانت مملوءة بالمنحنيات التي هي خير صديق للسائق عندما يخيم الليل ويأخذ التعب طريقه إليه فهي تجعله يقظًا دائمًا مفتوح العينين. ولكنني بعد أن تركت "أتري" وأنا في الطريق خلال بساتين البرتقال في منطقة "فوتدي" أخذ النعاس يغالبني فأخذت أفكر في إيتاليا لكي أظل مستيقظًا.

ومع ذلك فقد بدا لي وأنا أفكر فيها أن خواطري أخذت تتعقد وتتشابك في ذهني كأغصان الأشجار في الغابة التي تزداد كثافتها تدريجيًا

حتى تظلم تمامًا في النهاية. وأذكر أنني قلت لنفسي فجأة: "لقد أسعدني الحظ بالتفكير فيها لكي أظل مستيقظًا.. وإلا لكنت نائمًا الآن. ولا شك أنني كنت نائمًا فعلاً وقد تولدت هذه الفكرة في ذهني لا أثناء يقظتي بل أثناء نومي وقد أوحى إلي بهذه الفكرة حتى يهدأ نومي ويزيد استسلامي المطلق له. وفي نفس اللحظة شعرت أن اللوري قد أنحرف عن الطريق وغاص في الحفرة وسمعت من خلفي صوت اصطدام العربة المقطورة وهزتها وهي تنقلب. ولكننا كنا نسير ببطء ولذلك لم يلحقنا أذى.

وما أن تمكنا من الخروج من السيارة حتى رأينا العربة المقطورة وقد قلبت رأسًا على عقب وارتفعت عجلاتها في الهواء وأن الحمولة بأسرها التي كانت تتألف من جلود مدبوغة قد تكدست في الحفرة. كانت ليلة ظلماء غير مقمرة ولكن السماء كانت مملوءة بالنجوم. وشاء القدر أن نكون على مقربة من "تراسينا"، فقد كان على يميننا تل شديد الانحدار وعلى يسارنا فيما وراء حقول الكرم البحر الأسود الهادئ.

ولك يزد بالوهابي على أن قال: "لقد فعلتها الآن". ثم أضاف قائلاً: "يجب أن نأتي بالعون من "تراسينا: فبدأنا رحلتنا مشيًا على الأقدام. كانت مسافة قصيرة للغاية ولمن بالوهابي الذي كان لا يفكر إلا في الطعام ما كاد يرى أننا على مقربة من تراسينا حتى قال إنه جائع وإنه يمكننا دخول إحدى الحانات مادام لوري التصليح ذو الرافعة لن يصل قبل مضي ساعات. فدخلنا المدينة وبدأنا نبحث عن حانة.

ولكن الوقت كان قد جاوز منتصف الليل ولم يكن هناك في تلك

الساحة المستديرة التي امتلأت بالفراغات من أثر ضربها بالقنابل إلا مقهى واحد وفضلاً عن ذلك فإنه كان يغلق أبوابه. فانحرفنا إلى طريق جانبي صغير بدا أنه يؤدي إلى البحر.

وعلى مسافة صغيرة منه رأينا مصباحًا ولافتة معلقة فوق باب، فأسرعنا الخطى وقد قوى لدينا الأمل وكان المحل حانة بالفعل ولكن "التندة" الأسطوانية كانت قد أنزلت حتى نصفها وكأن الحانة على وشك أن تغلق أبوابها. وكانت للحانة أبواب زجاجية وقد تركت "التندة" جزءًا مكشوفًا من الزجاج. فأمكننا أن نختلس النظر إلى الداخل. فقال بالوهابي وهو ينحني ليلقي نظرة إلى الداخل "يمكنك أن ترى إنها مغلقة". فانحنيت أنا أيضًا وأمكننا أن نرى غرفة واسعة مثل غرف الحانات الريفية وقد انتشرت فيها بضع موائد ومنضدة مرتفعة للخزينة. وكانت المقاعد كلها مقلوبة على الموائد ورأينا إيتاليا ممسكة بمكنسة وقد انهمكت في التنظيف بينما ربطت حول ردفيها منظفة كبيرة. وكان يقف خلفها منضدة الخزينة عند نهاية الغرفة تمامًا رجل أحدب.

ولقد سبق لي أن رأيت حدبًا ولكن لم يكن من بينهم قط أحدب على هذه الصورة التامة الكاملة. كان وجهه قد أتخذ من يديه إطارًا وكان ظهره المحدب يعلو فوق رأسه بينما راح يحملق في إيتاليا بعينين قبيحتين سوداوين صفراويتين. وكانت هي تكنس الأرض في رشاقة ثم قال لها الأحدب شيئًا أو آخر دون أن يتحرك فاتجهت إليه وأسندت المكنسة على منضدته ثم وضعت ذراعها حول عنقه ومنحته قبلة طويلة دافئة. ثم تناولت مكنستها مرة أخرى وأخذت تدور في أنحاء الغرفة وكأنها ترقص. وهبط الأحدب عن المنضدة ثم تقدم إلى منتصف الغرفة.

وأمكننا عندئذ أن نرى أنه كان بحارًا يضع خفًا في قدميه ويرتدي سراويل الصيادين ذات القماش الأزرق وقد طويت إلى أعلى قليلاً من طرفيها كما ارتدى قميصًا مفتوحًا عند العنق على طريقة روبسبير. تقدم إلى الباب فانسحبا سويًا إلى الخلف وكأن خاطرًا واحد قد لاح لكلينا. ففتح الأحدب الباب الزجاجي وجذب التندة من الداخل.

فقلت لأخفي اضطرابي: "من كان يظن هذا أبدًا"؟ وأجاب بالوهابي قائلاً في مرارة أدهشتني: "أجل". ثم ذهبنا إلى الجراج حيث قضينا الليل في إعادة اللوري إلى الطريق وتحميل كل تلك الجلود. وعند الفجر كنا في طريقنا إلى روما عندما بدأ بالوهابي يتكلم – ويمكنني أن أقول أنه تكلم لأول مرة منذ أن عرفته قال: "أرأيت ما فعلته بي هذه الساقطة إيتاليا"؟

فأجابته في دهشة قائلاً: ماذا تعني؟

فأردف يقول بلهجته البطيئة المكتئبة – "بعد كل ما قالته لي. وبعد أن ظلت تمسك بيدي طيلة الوقت أثناء عدونا ورواحنا وبعد أن صارحتها برغبتي في الزواج بها ولقد كنا في الواقع أشبه بخطيبين – "حسنًا". هل رأيت؟ إنها تخونني مع أحدب.

لقد ذهبت كلماته بأنفاسي فلم أقل شيئًا. وأردف بالوهابي قائلاً: "ولقد أعطيتها مجموعة كبيرة من الهدايا الجميلة – قلادة من المرجان ووشاحًا حريريًا وحذاء من الجلد اللميع.. أصدقك القول إنني كنت مغرمًا بها حقًا وفضلاً عن هذا فقد كانت الفتاة المناسبة لي تمامًا.. إنها امرأة ساقطة جاحدة لا قلب لها أجل هذه هي..".

وواصل حديثه على هذه الصورة بعض الوقت، وهو يتكلم في بطء وكأنه يحدث نفسه في ضوء الفجر الشاحب ونحن في طريقنا إلى روما. وهكذا لم يسعني إلا أن أعتقد أن إيتاليا قد خدعتنا نحن الاثنين لا لشيء إلا لتدخر ثمن بطاقات السكة الحديد. ولقد أثار أعصابي أن أسمع بالوهابي يتكلم لأنه كان يردد نفس الأشياء التي كان يمكنني أن أقولها أنا نفسي ولأن هذه الأشياء بدت لي مضحكة وهو يقولها نظرًا لأنه لم يكد يستطيع الكلام. واستبد بي هذا الشعور بالضيق حتى أنني قلت له فجأة: كف عن هذا الحديث عن هذا الهيكل العظمي.. فأنا أريد أن أنام. "فأجابني المسكين، قائلاً: "ومع ذلك فلتعلم أن بعض الأشياء تؤذي الشعور". ثم لاذ بالصمت طوال الطريق إلى روما.

وظل عدة شهور بعد ذلك حزينًا طيلة الوقت. وارتد الطريق في نظري إلى سابق عهده، فصار طريقًا بلا بداية أو نهاية بل شريطًا كئيبًا من الإسفلت على أن ابتلعه ثم أعود فأتقيأه مرتين في النهار. ومع ذلك فإن ما شجعني على تغيير عملي هو أن إيتاليا افتتحت حانة للنبيذ في الطريق إلى نابولي مباشرة وأطلقت عليها اسم "ملاذ سائقي اللوريات".

وكان ملاذًا جميلاً في الواقع جديرًا بأن يقطع المرء مئات الأميال لزيارته! وبالطبع لم نتوقف قط هناك ومع هذا فقد كانت مشاهدة إيتاليا خلف منضدة الخزينة بينما يقدم إليها الأحدب الأقداح وزجاجات البيرة منظرًا مؤلمًا. فاعتزلت العمل. ولكن سيارة اللوري الذي يقودها بالوهابي وتحمل على حاجز الريح عبارة "تحيا إيتاليا" ما زالت تعمل في الطريق.

الحشرة التافهة

لا يعرف الناس أبدًا الشيء الكثير عن أولئك الذين هم دونهم وكذلك عمن يفوقونهم. أما عن نفسي فقد غاليت أكثر مما يجب في تصور نفسي أقل من الناس جميعًا. فإني حقًا لم أولد ذا هيكل صلب كالحديد: بل لنقل مثلاً في صلابة الخزف تقريبًا. ولكنني كنت أعد نفسي هشًا كالزجاج بل في الواقع كأرق ما يكون الزجاج. وكان هذا كثيرًا بل أكثر مما يجب. فقد كان في ذلك تحقير لنفسي يفوق الاحتمال.

وقد تعودت أن أقول لنفسي في كثير من الأحيان: "والآن فلنلقي نظرة سريعة على صفاتي. فأنا من ناحية القوة البدنية – لا شيء، إذ أنني ضئيل الجسم ذو هيكل معوج هزيل البنية ذو ذراعين وساقين أشبه بالعصى. فأنا العنكبوت. وأما عن ذكائي – فهو غاية في التفاهة إذا ما رأينا أنه من بين الأعمال جميعًا لم أنجح قط في أن أزيد على غسال للصحاف في أحد الفنادق. وأما عن طلعتي – فأنها أقل من لا شيء. فوجهي ضامر أصفر وعيناي ملونتان بلون قذر غير محدد وأنفي يبدو وكأنه جعل لوجه يبلغ عرضه ضعف ما يبلغه وجهي. فهو أنف كبير طويل يبدو كأنه ينحدر في استقامة ثم إذا به يلتوي عند طرفه الأسفل كالسحلية التي ترفع خرطومها.

وثمة صفات أخرى مثل الشجاعة وسرعة الحركة والجاذبية والقدرة على التودد إلى الناس – هذه الصفات كلما قل الحديث عنها فيما يخصني كان ذلك خيرًا وأفضل. وإذن فقد كان طبيعيًا تمامًا بعد الوصول إلى مثل هذه

النتائج أن أحذر مغازلة النساء. وكانت المرأة الوحيدة التي حاولت أن أتقرب إليها تعمل خادمة في الفندق. وقد أوقفتني عند حدي بعبارة ملائمة للغاية. إذ قالت لي يا لك من حشرة تافهة وهكذا رسخ في ذهني رويدًا أنه لا قيمة لي مطلقًا وإن خير ما يمكنني أن أفعله هو أن ألوذ بالصمت في ركن ما حتى لا اعترض الطريق.

ويستطيع كل من يمر بالطريق الخلفي لفندق روما حيث أعمل خلال الساعات الأولى من أصيل كل يوم أن يرى صفًا من النوافذ المفتوحة في مستوى الأرض وقد انبعثت منها الرائحة النفاذة لغسيل الصحاف. وإن استطاعت عيون المرة أن تخترق الظلام لرأوا أيضًا أكداسًا وأكداسًا من الصحاف التي ترتفع حتى السقف وقد وضعت على الموائد وعلى رخامة الحوض.

حسنًا كان ذلك هو الركن الذي كنت أعمل فيه – الركن الذي اخترته من العالم بأسره حتى لا أكون ظاهرًا للعيان. ولكن ما أغرب القدر! فقد كان آخر ما أتوقعه وأنا في ذلك الركن – أعني – ذلك المطبخ بعينه أن يأتي شخص ما ويأخذني على غرة ثم يقتطفني كالزهرة التي كانت مختفية في العشب. إنها "أيدًا" خادمة المطبخ الجديدة التي حلت محل "جيوديتا" التي كانت توشك على الوضع.

وكانت "أيدا" بين النساء مثلي تمامًا بين الرجال سمكة مسكينة. (حشرة تافهة). وكانت تشبهني في ضآلة جسمي واعوجاج هيكلي وتحولي وتفاهتي. ولكنها كانت محبة قلقة فرحة وشيطانه. وسرعان ما انعقدت بيننا أواصر

الصداقة ويرجع ذلك إلى وقوفنا أمام نفس الصحاف ونفس الماء القذر.

ولما كانت كل خطوة تتلوها خطوة أخرى فقد أقنعتني بدعوتها يوم أحد إلى السينما فدعوتها تأدبًا. وعرتني الدهشة عندما أمسكت يدي في ظلام السينما ووضعت أصابعها الخمس بين أصابعي. وظننت أنه قد وقع خطأ ما بل حاولت أن أخلص يدي ولكنها همست لي توصيني بالسكون: فأي ضرر يمكن أن يكون هناك من تشابك أيدينا. وما أن خرجنا من السينما حتى أوضحت لي أنها ظلت تلاحظني بعض الوقت بل يمكن أن يقال أنها فعلت ذلك من اليوم الأول الذي التحقت فيه بالخدمة في الفندق, وإنها منذ تلك اللحظة لم يكن لها عمل إلا التفكير في وأنها كانت تأمل أن أكون مغرمًا بها ولو قليلاً لأنها من جانبها لم تكن تستطيع الحياة بدوني. وكانت هذه أول مرة تقول لي فيها امرأة حتى ولو كانت "أيدا" مثل هذه الأشياء ففقدت صوابي. وأعطيتها كل ما تريده من إجابات بل وأكثر مما تريده بكثير.

ولكن دهشتي العميقة لم تزيلني ومع أنها ظلت تردد أنها كانت مجنونة بي فإني لم أقتنع بهذا. ولذلك فقد كنت في مناسبات أخرى عند خروجنا معًا لا أتمالك نفسي من الإلحاح في تناول الموضوع بالحديث وكان ذلك لأستمتع أولاً بسماعها ترديده وثانيًا لأنه تعذر على تصديقه. فكنت أقول لها: "والآن أرجو أن تقول لي فأنا أحب أن أعرف ما الذي ترينه في؟ كيف يمكنك أن تحبيني"؟ وهل تصدق أن "أيدا" كانت تتعلق بذراعي بكلتا يديها وترفع نحوي وجهًا عاشقًا متعبدًا ثم تجيبني قائلة: "إني أحبك لأنم تملك كل الصفات الحسنة.. فأنت في نزري كمال حي".

وكنت أردد قائلاً غير مصدقك "كل الصفات الحسنة؟ إني لم أعرف هذا قط من قبل". فترد قائلة: "نعم كلها.. فأنت أولاً وسيم للغاية". ويجب أن أعترف بأنني لم أتمالك نفسي حينئذ من الضحك قائلاً: "أنا وسيم؟ ولكن هل أنعمت النظر إلي"؟ فترد قائلة: "نعم بالطبع. إني أفعل هذا طيلة الوقت".

فأسألها قائلاً: "ولكن ما رأيك في أنفي هل نظرت قط إلى أنفي"؟ فتجيبني قائلة: "إنه أنفك بالذات الذي يعجبني" ثم تمسك بأنفي بين أصبعيها وتهزه كالناقوس وتضيف قائلة: "أيها الأنف. أيها الأنف. لست أدري ما الذي أضن؟ من أجل هذا الأنف؟ ثم ترد قائلة: "وفضلاً عن هذا فأنت آية في الذكاء". فأرد عليها قائلاً: "أنا ذكي؟ إن الجميع يقولون أنني أبله". فتجيبني بمنطق النساء قائلة: "هم يقولون هذا حسدًا. ولكنك ذكي بل آية في الذكاء.. فعندما تتحدث أنصت إليك فاغرة فاي.. أنت أذكى من رأيت". ثم لا ألبث أن أواصل الحديث قائلاً: "حسنًا. ولكنك على أية حال لن تزعمي أنني قوي. لا يمكنك أن تزعمي هذا". فتجيبني في حماس قائلة: "نعم أنك قوي... قوي للغاية".

وقد استغرق مني تصديق هذا بعض الوقت. وظللت برهة لا أستطيع الكلام. ثم عادت تقول مرة أخرى: "وفضلاً عن هذا فإن أردت حقيقة أن تعلم – فهناك شيء ما أحبه فيك". فسألتها قائلاً: "ولكن ما هو هذا الشيء؟ أريد أن أعلم. فأجابتني قائلة: "لست أدري بالضبط كيف أفسر لك هذا. إنه صوتك. تعبيرك. مشيتك.. ومما تقوله وتعودت أن أجعلها تكرر هذه الأقوال لا لسبب إلا لأنه كان يسرني أن أقارن بينها وبين ما كنت اعتقده في نفسي دائمًا".

ولكني يجب أن اعترف أن بعض الأفكار بدأت تختمر في ذهني مع مرور الأيام. فكنت أقول لنفسي أحيانًا "لنفرض أن هذا صحيح حقًا"؟! ولم يكن ذلك لأنني أمنت حقًا بأنني اختلفت جوهريًا عما كنت أراه دائمًا في نفسي. ولكن حديث "أيدا" عن ذلك الشيء الذي أعجبها في تركني في شك من أمري. فقد أحسست أن مفتاح السر كان يكمن في هذا القول. وكنت أعلم أن هذا "الشيء الخفي" هو السبب في حب النساء للحدب من الرجال والأقزام والشيوخ بل حتى الوحوش. فلم لا يحبني شخص ما أنا أيضًا؟ فأن لست أحدب ولا قزمًا ولا شيخًا ولا وحشًا".

وقد قررت أنا وأيد حوالي هذا الوقت أن نذهب لزيارة سيرك كان قد ضرب خيامه أمام الباسجياتا آركيولوجيكا ولشد ما كنا مبتهجين. وما إن دخلنا الخيمة الكبيرة حتى أخذنا مكاننا في المقاعد الرخيصة متقاربين يضع أحدنا ذراعه في ذراع الآخر. وكانت تجلس بجانبي امرأة "شقراء" طويلة القامة صغيرة السن قسيمة الوجه. وكان يجلس في المقعد المجاور لها شاب أسمر ضخم قوي أيضًا من ذلك الصنف الذي يبدو رياضيًا مفتول العضلات. ورأيت إنهما يمثلان ما يسمى "بالثنائي الوسيم" ثم لم أعد أفكر فيهما وتحولت بانتباهي كله إلى السيرك.

كانت الحلقة المغطاة بالرمل الأصفر لا تزال خالية. ولكن كانت هناك في الطرف الأقصى منصة تجلس فوقها فرقة موسيقية يرتدي أعضاؤها زيًا أحمر موحدًا ويمسكون جميعًا بالآلات النحاسية والصفارات وكانوا طيلة الوقت لا يتوقفون عن عزف الألحان العسكرية الحربية الواحد تلو الآخر. وفي النهاية دخل أربعة مهرجين إثنان منهما قزمان والآخران أكبر حجمًا.

وقد طليت وجوههم باللون الأبيض وارتدوا سراويل كبيرة واسعة. وراحوا يأتون حركات بهلوانية ويقولون الفكاهات بينما يصفع كل منهم الآخر ويرفسه. وضحكت "أيدا" كثيرًا حتى انتابها السعال. ثم عزفت الفرقة لحنًا عسكريًا بهيجًا وقد جاء دور الخيول التي بلغ عددها ستة في مجموعها ثلاثة منها شهب وثلاثة بيض. وبدأت جميعها تدور حول الحلقة في سرعة ورشاقة بقدر ما أمكنها ذلك بينما كان مدربها المتشح بالملابس الحمراء والذهبية واقفًا في وسط الحلقة يضرب سوطه الطويل في الهواء. ثم دخلت ترقص في الحلقة امرأة ترتدي سترة من الشف وسراويل بيضاء محكمة وأمسكت بسرج أحد الخيول ثم راحت تركض بجانبه وهي تثب فوقه ثم تترجل في حركة دائبة بين أعلى وأسفل بينما ظلت الخيول تدور وتدور خببًا في أول الأمر ثم عدوا في آخر الشوط.

وما إن اختفت الخيل حتى عاد المهرجون الذين راحوا يتقلبون في الهواء ويرفس كل منهم الآخر في ظهره. وجاءت أسرة من البهلوانات تتكون من أب وأم وابنهما الصغير وكانوا جميعًا يرتدون الملابس الزرقاء المحكمة وكان ثلاثتهم مفتولي العضلات وخاصة الصبي. أخذوا يصفقون، ثم إذا بهم يتسلقون حبلاً ذا عقد ويرتفعون إلى أعلى ثم أعلى حتى وصلوا إلى سقف الخيمة. ومن هناك بدئوا يرسلون الأراجيح إلى الإمام وإلى الخلف وهم يتعلقون بها حينًا بأيديهم وحينًا بأقدامهم. وأخذ الأبوان يتبادلان الصبي كالكرة. فاستحوذ على الإعجاب وقلت لأيدا:

– "أنظر إلى هذا! لشد ما أتوق لأن أكون بهلوانًا! فأنا أريد أن أندفع في الهواء ثم أمسك الأرجوحة بساقي"! فاقتربت مني "أيدا" بطريقتها

المعهودة وأجابتني قائلة بلهجة تفيض حبًا وتدلها: "الأمر كله تدريب فحسب.. فإن تدربت يمكنك أنت أيضًا أن تفعل هذا.

ونظرت المرأة الجميلة إلينا ثم همست إلى رفيقها وانفجرا ضاحكين وما أن انتهى البهلوانات من ألعابهم حتى جاء دور الأسود – وهو أهم جزء في البرنامج. فدخل الحلقة عدد من الشبان وكانوا يرتدون سترات طويلة حمراء مفتوحة من الخلف ثم طووا في داخلها أحد المهرجين دون أن يلحظوا ذلك. وعندما رأت "أيدا" وجهه الأبيض يبرز من بين لفة السجاد أوشكت أن تسقط عن مقعدها من شدة الضحك. وسرعان ما وضع الشبان في رشاقة شديدة قفصًا كبيرًا منكلاً في وسط الحلقة. ثم ظهر من خلال باب صغير الرأس الكبير الأشقر للأسد الأول على وقع الطبول. وقد دخل الحلقة خمسة أسود بالإضافة إلى لبؤة كانت تبدو حادة الطبع للغاية إذ أنها بدأت تزأر في الحال.

وفي النهاية دخل مروض الأسود، وكان رجلاً ضئيلاً مقبول الشكل كثير الكلفة يرتدي سترة خضراء حليت بجدائل ذهبية. وأخذ ينحني للجمهور في الحال وهو يلوح بسوط مدربي الخيل وكان يمسك به في إحدى يديه ويمسك في اليد الأخرى بعصا ذات خطاف في نهايتها كتلك التي تستخدم في إنزال "التندة" الأسطوانية للمحال. وأخذت الأسود تدور في الحلقة وهي تزأر. واستمر هو في الانحناء للجمهور هادئًا مبتسمًا ثم استدار نحوها في النهاية وأرغمها الواحد بعد الآخر على الصعود فوق بعض المقاعد الصغيرة التي لا مسند لها وذلك عن طريق وخزها بالخطاف – وكانت حقًا مقاعد صغيرة للغاية صفت في مؤخرة القفص.

وما كادت الأسود – تلك الوحوش المسكينة – ترقد على هذه المقاعد الصغيرة – حتى بدأت تزأر وتكشر عن أنيابها. وقد مد اثنان أو ثلاثة منها مخالبها تجاه المروض أثناء مروره بالقرب منها ولكنه تجنبها بدورانه حول نفسه. فهمست: "أيد" قائلة لي وهي تتشبث بذراعي:

"وماذا يحدث لو التهمته هذه الأسود"؟ وعندئذ قرعت الطبول واتجه المروض إلى أحد الأسود وكان أكبر سنًا من الباقين وقد بدا عليه أنه قاب قوسين أو أدنى من النوم فلم يكن يسمع له زئير. وفتح المروض فاه ثم أدخل فيه رأسه ثلاث مرات متتالية. فقلت لأيدا وسط عاصف التصفيق التي تلت ذلك:

"إنك لا تصدقينني. ولكنني أتمنى أن أدخل هذا القفص أنا أيضًا واضع رأسي في فم الأسد".

فأجابتني في إعجاب شديد قائلة وهي تقترب مني:

"إني أعلم أنك قادر على هذا تمامًا". عندئذ انفجر الشاب الرياضي والمرأة الصغيرة الشقراء يضحكان وهما ينظران إلينا نظرة ذات مغزى. وفي هذه المرة لم نستطع أن نتجاهل أنهما كانا يضحكان منا فغضبت "أيدا" وتمتمت قائلة لي: "إنهما يضحكان منا.. لم لا تقول لهما كم هما وقحان"؟ ولكنني سمعت في هذه اللحظة دقات جرس ونهض الجميع بينما خرجت الأسود حانية رؤوسها خلال الباب الصغير المألوف وانتهى الجزء الأول من العرض.

وعند خروجنا من الخيمة كان الآخران يسيران أمامنا. فاستمرت"أيدا" تهمس في عناد قائلة:

– لابد أن تقول لهما كم هما وقحان.. فإن لم تفعل فأنت جبان..

وشعرت بكبريائي الجريح فقررت أن أبادرهما بالكلام وكانت هناك في خارج الخيمة الكبيرة وفي سترها حظيرة يمكنك فيها أن تدفع أجرًا إضافيًا لزيارة حديقة الحيوان التابعة للسيرك. وكانت تحوي صفًا من الأقفاص التي وضعت في أحد الجانبين وبداخلها الحيوانات المفترسة وفي الجانب الآخر فضاء وضع فيه القش على الأرض حيث انطلقت الحمير الوحشية والفيلة والخيول والكلاب. وكاد الظلام يخيم في داخل الحظيرة ولكننا ما أن دخلنا هناك حتى أمكننا أن نرى الثنائي الآخر في الظلام واقفين أمام قفص الدب. وكانت المرأة الشقراء تتكئ إلى الإمام لتنظر إلى الدب الذي كان منطويًا على نفسه ومستغرقًا في النوم بينما استند ظهر الفرائي إلى قضبان القفص. وكان الرجل يجذبها بعيدًا من ذراعها. فاتجهت رأسًا إلى الرجل وقلت له في صوت ثابت: "قل لي.. هل كنتما تضحكان منا"؟

فاستدار نحوي قليلاً وأجابني بلا تردد قائلاً:

– كلا... بل كنا نضحك من ضفدع يتظاهر بأنه ثور.

– أظنك تقصدني بالضفدع؟

– إن كان يلائمك هذا الوصف فلتتخذه لنفسك..

وكانت "أيدا" تدفعني إلى الأمام بيدها الموضوعة على ذراعي.

فأجبته قائلاً وأنا أرفع صوتي:

– أنت تعرف من أنت؟ إنك لا تعدو أن تكون وغدًا جاهلاً..

فأجابني قائلاً في وحشية:

– آه لقد بدأ الضفدع نقيقه الآن.. أليس كذلك؟...

عندئذ أخذت المرأة في الضحك فقاطعتها "أيدا" وهي تفح كالأفعى قائلة:

– ليس هناك ما يثير الضحك.. ويحسن بك بدلاً من الضحك أن تمتنعي عن الاحتكاك بزوجي.. أعتقد أنك تظنيني لم أرك.. لقد ذراعك به طيلة الوقت. واعترتني الدهشة لأنني لم ألحظ ذلك: قد يكون ما حدث على الأكثر أنهما لما كانت جالسة بجانبي فربما لمستني بمرفقها وبالطبع أجابت قائلة في غضب:

"يا فتاتي العزيزة أنك معتوهة..".

– كلا. لست معتوهة.. ولكنني رأيتك تحتكين به..

وعندئذ تكلمت بلهجة تفيض احتقارًا قائلة:

– ولكن لماذا تظنيني أعبأ "بحشرة تافهة" كزوجك. فإني أنتقي رجلاً حقيقيًا.. هاك رجلاً حقيقيًا.. وبينما كانت تقول ذلك تناولت ذراع صديقها كما يتناول القصاب فخذ الخنزير ليعرضه مفاخرًا به على أحد عملائه. ثم أردفت تقول:

– هذه هي الذراع التي أحتك بها.. أنظري كم هي مفتولة.. أنظري كم هو قوي..

عندئذ أقبل الرجل بدوره نحوي وقال مهددًا:

– يكفي هذا.. فلتغرب من هنا.. يحسن بك أن تذهب.

فصحت في حنق قائلاً وأنا أرفع نفسي على أطراف أصابعي لأبلغ مستوى قامته. ومن ذا الذي يقول هذا؟

أما المنظر الذي تلا ذلك فلن أنساه ما حييت. إذ أنه لم يحر جوابًا على سؤالي بل حملني فجأة من أبطي ورفعني في الهواء كالريشة. وكان في الناحية الأخرى من الأقفاص كما سبق أن قلت فضاء مغطي بالقش حيث كان يحتفظ بالحيوانات الأليفة. وكانت تقف خلفنا بالضبط عائلة من الفيلة – تتألف من أب وأم وطفل. وكان هذا الأخير صغيرًا نسبيًا ولكنه مع ذلك كان في حجم الحصان. وقد وقفت هذه المخلوقات الثلاثة المسكينة في ركن مظلم وقد تدلت آذانها وخراطيمها إلى أسفل والتصقت أوبارها الضخمة القاتمة.

فرفعني هذا "البلطجي" العملاق في الهواء ثم أسقطني فجأة على ظهر أصغر الفيلة وربما ظن الحيوان أن اللحظة قد حانت لدخوله حلقة السيرك. فبدأ يسير في بطء وهو يحملني على ظهره على طول الممر بجانب الأقفاص واندفع الناس في جميع الاتجاهات وكانت "أيدا" تجري من خلفي وهي تصرخ بينما جلست أنا فاتحًا ما بين ساقي على ظهر الفيل الصغير وأنا أحاول عبثًا أن أمسك بأذنيه لأوقفه. وما أن بلغنا نهاية الممر حتى انزلقت من فوق ظهره وسقطت على الأرض حيث أرتطم الجزء الخلفي من رأسي. ولست أدري ما حدث بعد ذلك فقد أغمي علي. وعندما أفقت وجدت نفسي في مركز الإسعاف وقد جلست "أيدا" إلى جانبي ممسكة.

وعندما تحسنت حالي بعد ذلك عدنا إلى المنزل دون أن نرى الجزء الثاني من العرض..

وفي اليوم التالي قلت لايدا: "عليك يقع اللوم.. فأنت توحين إلي بمثل هذه الأفكار وتجعليني أعتقد أني لست أدري ماذا.. ولكن تلك المرأة كانت على حق تمامًا.. فما أنا إلا "حشرة تافهة، ولا شيء غير ذلك".

ولكن أيدا أمسكت بي من ذراعي وحملقت في قائلة:

– لقد كنت رائعًا. فقد انتابه الخوف وهذا هو السبب في أنه وضعك على ظهر الفيل.. ثم بدوت رائعًا حقًا وأنت راكب على ظهر الفيل. ومما يؤسف له إنك انزلقت من فوقه.

وهكذا فقد أسقط في يدي.. فقد كنت في نظرها شيئًا ما وفي نظر الناس شيئًا آخر.. ولكن هل في إمكانك أبدًا أن تعرف ما يراه النساء عندما يقعن في الحب؟

الجريمة الكاملة

كلما تعرفت بفتاة كنت أقدمها إلى ريجامونتي، فكان دائما يغريها بهجري ومصادقته هو. وربما كنت أفعل هذا لأظهر له إنني كنت معه على قدم المساواة في توفيقي مع النساء. أو ربما كان ذلك لأنني لم أستطع قط أن أقنع نفسي بإساءة الظن به، وكنت في كل مرة على الرغم من خيانته لي في المرة السابقة أعود إلى معاملته كصديق. ولو أنه كان يفعل ذلك في شيء من الرقة وحسن التهذيب لأمكنني أن أتحمله دون كبير مشقة. ولكنه كان يسلك سلوكًا شديد الوقاحة كما لو كان الأمر لا يعنيني مطلقًا. بل لقد بلغ حد مغازلة الفتاة في حضوري كما كان يضرب لها المواعيد تحت سمعي وبصري.

في مثل هذه الحالات كما هو معروف يستسلم الشخص ذو الأخلاق الكريمة. فبينما كان هو لا يجد غضاضة ما في أن يفعل كل ما كان يرضيه للغاية كنت أنتحي أنا جانبًا في هدوء خشية أن أثير شجارًا فأظهر للسيدة الصغيرة أنني لا أحترمها. ولقد احتججت على هذا التصرف مرة أو مرتين ولكن في تردد ووجل لأنني لا أحسن التعبير عن مشاعري فعندما يستبد بي الغضب في أعماق نفسي أظل باردًا هادئًا في مظهري فلا يظن أحد إنني غاضب. أتعرفون بماذا أجابني؟ قال: "لا تلومون إلا نفسك.. فإن كانت الفتاة قد فضلتني عليك فمعنى هذا أنني أعرف كيف أسوس الأمور خير منك". وكان هذا صحيحًا كما كان صحيحًا أيضًا تفوقه على من ناحية القوة

البدنية. ولكن ليس أول على إخلاص صديقك من أن يدع صديقاتك وشأنهن.

والخلاصة أنه بعد أن خدعني على هذه الصورة أربع مرات أو خمسة بدأت أمقته بكل جوانحي إلى حد أنني حرصت وأنا في البار حيث كنا نعمل سويًا على أن أشيح عنه بوجهي أو أدير له ظهري حتى لا أراه وأنا واقف معه خلف منضدة البار الكبير حيث كنا نخدم نفس العملاء. وكدت أنسى وقتذاك ما أنزله بي من مظالم وصرت أفكر فيه هو فحسب وكيف كان يبدو وأدركت أنه لم يعد يسعني أن أتحمله.

فقد كرهت وجهه القوي الغبي الذي انخفضت جبهته وضاقت عيناه وتقوس أنفه الكبير، وامتلأت شفتاه ورق شاربه. كرهت شعره الذي كان كالخوذة فوق رأسه أسود لامعًا تمتد به خصلتان طويلتان من صدغيه حتى قفاه. كما كرهت ذراعيه الشعراوين اللتين كان يستعرضهما وهو واقف يعمل على آلة القهوة. وكنت مفتونًا بأنفه أكثر من أي شيء آخر. كان عريضًا عند المنخرين مقوسًا سميكًا شاحبًا في وسط وجهه الأحمر حتى بدا وكأن قوة عظامه قد شدت بشرته بنتوئها. وطالما خطر لي أن أوجه إليه لكمة في أنفه هذا وأن أسمع صوت عظامه وهي تتهشم تحت قبضتي. ولكن ذلك كان حلمًا لأنني ضئيل نحيل وكانفي إمكان ريجامونتي أن يطرحني أرضًا بأصبع واحدة.

لست أدري كيف بدأت أفكر في قتله. قد يرجع هذا إلى ذلك المساء الذي ذهبنا فيه معًا لمشاهدة فيلم أمريكي بعنوان "الجريمة الكاملة" ولكي أتحرى الدقة فإنني لم أشأ حقيقة أن أقتله في أول الأمر لا لشيء إلا لأتخيل

كيف سأفعل هذا وكان التفكير في ذلك يبعث في نفسي السرور ليلاً قبل أن أنام وصباحًا قبل أن أنهض من فراشي. آه نعم حقًا، في أثناء النهار أيضًا عندما لا أجد ما أقوم به في البار وعندما يكون ريجامونتي جالسًا على أحد المقاعد خلف المنضدة الكبيرة وهو يقرأ الجريدة وقد انحنى رأسه الذي أتقن دهنه بالزيوت فوق الصفحة التي يقرأ فيها.

وتعودت أن أحدث نفسي قائلاً: "والآن أتناول المطرقة التي نستخدمها في كسر الثلج ثم أضربه بها على رأسه". ولكنني بالطبع كنت أمزح فحسب. وفي الواقع فإنني كنت كالعاشق الذي يفكر طيلة النهار في المرأة التي يحبها ويفكر فيما يود أن يفعله معها ويقوله لها. كل ما هنالك أن ريجامونتي قد حل محل العشيقة وأن المتعة التي يجدها غيري في تخيل القبلات والملاطفات كنت أجدها أنا في تخيل موته.

كما أنني وضعت خطة خيالية في كل تفصيلاتها على سبيل المزاح وجريًا وراء المتعة الكبيرة التي كنت أجدها في ذلك. ولكنني ما أن رسمت الخطة حتى دهمني الإغراء بتنفيذها. وكان هذا الإغراء خطوة إيجابية. ولكن من المحتمل أنني لم أعقد النية قطط بل ألقيت نفسي أعمل في الوقت الذي كنت أعتقد فيه أنني أتخيل ومعنى هذا أنني كنت كالعاشق أفعل كل شيء بطريقة طبيعية لا إرادية لا جهد فيه ولا مشقة حتى أنني لم ألحظ ذلك.

فبدأت إذن أقول له بين كل قدح وآخر من القهوة إنني تعرفت بفتاة على جانب كبير من الجمال وإنها في هذه المرة لم تكن مجرد فتاة من تلك الفتيات العاديات اللائي كنت أحبهن وكان هو يختطفهن مني بل كانت تلك

الفتاة قد أمعنت النظر إليه وكانت تريده هو وحده دون غيره. ورحت أردد له هذا يومًا بعد يوم مدة أسبوع مضيفًا في كل مرة دقائق جديدة للفتاة موضوع هذا الحب العارم ومتظاهرًا بالغيرة. وقد حاول في مبدأ الأمر أن يدعي عدم الاكتراث فقال: "لو إنها تحبني ففي إمكانها أن تأتي إلى البار.. فأقدم لها قدحًا من القهوة". ولكنه ما لبث أن فقد أعصابه. فأخذ من وقت لآخر يسألني قائلاً وهو يتظاهر بالمزاح: "والآن قل لي: هذه الفتاة.. هلا تزال تحبني"؟ فأجيبه قائلاً: بالطبع فيسألني قائلاً: وماذا تقول؟ فأرد عليه قائلاً: هي تقول إنها تجدك جذبة للغاية. فيعاود سؤالي قائلاً: ولكن كيف؟ وما الذي يجذبها إلي؟ فأقول له: كل شيء، أنفك وشعرك وعيناك وطريقتك في العمل على آلة القهوة... أقولك لك كل شيء. لقد كنت في الواقع نفس الأشياء التي كنت أمقتها فيه، وكنت على استعداد لقتله من أجلها فحسب – تلك الأشياء عينها هي التي أدعيت إنها أدارت رأس الفتاة التي اختلقتها. فكان يبتسم ويمتلئ زهورًا وكبرياء لأنه كان مغترًا في حماقة ويظن أنه أعظم من الوجود.

وكان في إمكانكم أن تروا أن عقله السخيف لم يكن يهتم إلا بهذا وإنه كان يريد مقابلة الفتاة وإن كبرياءه هي التي كانت تحول بينه وبين طلب هذا إلي.. وفي النهاية قال لي في غضب ذات يوم: "والآن أنصت إلي.. أما أن تقدمني إليها أو يحسن بك أن تمسك عن الكلام عنها. وكنت أنتظر هذه الكلمات فحددت له في الحال موعدًا للقاء معه في المساء التالي.

وكانت خطتي بسيطة. فقد كان المحل يغلق أبوابه في الساعة العاشرة. ولكن صاحب المحل كان دائمًا يبقى في البار لإنجاز الحسابات حتى الساعة العاشرة والنصف. وكانت خطتي أن أصحب ريجامونتي إلى بقعة أسفل جسر

سكة حديد "فيتريو" التي كانت على مقربة من البار زاعمًا له أن الفتاة ستكون في انتظارنا هناك. وفي الساعة العاشرة والربع يمر القطار فاستغل فرصة الضوضاء وأطلق النار على ريجامونتي بمسدس من نوع "بيرتا" كنت قد ابتعته قبل ذلك بوقت قصير من ميدان فيتوريو وفي الساعة العاشرة والثلث أعود إلى البار لأحضر ربطة أدعى نسيانها فيراني صاحب المحل وفي الساعة العاشرة والنصف على الأكثر أكون في فراشي في غرفة البواب بالعمارة حيث أجر البواب لي فراشًا صغيرًا أقضي فيه الليل. وقد نقلت هذه الخطة إلى حد ما من الفيلم وعلى الأخص ذلك التوافق الزمني بين ارتكاب الجريمة ومرور القطار. كان من المحتمل جدًا ألا تنجح بمعنى أنه قد يكتشف أمري. ولكنني مع ذلك سأكون راضيًا للتنفس عن كراهيتي وفي سبيل ذلك الرضا أحسست أنني على استعداد لتحمل الأشغال الشاقة.

وفي اليوم التالي زاد علمنا للغاية لأنه كان أحد أيام السبت وكنت مسرورًا لذلك إذ ترتب عليه إنه لم يحدثني عن الفتاة ولم يكن لدى متسع من الوقت للتفكير في الموضوع وفي الساعة العاشرة كالعادة خلعنا ستراتنا الكتانية البيضاء ثم تمنينا ليلة طيبة لصاحب المحل وخرجنا إلى الطريق تحت التندة الأسطوانية التي أنزلت حتى نصفها. وكان البار يقع في الطريق المؤدي إلى أكوا آسيتوزا وهي على بعد خطوة واحدة من سكة حديد فيتريو، وفي تلك الساعة كانت حديقة الذكرى الواقعة فوق تل قريب قد أقفرت من آخر عشاقها. ولم يكن هناك أحد في الطريق المظلم التي تحف به الأشجار. كان ذلك في شهر إبريل وكان الهواء عليلاً بينما أخذت السماء تصفو رويدًا رغم أن القمر لم يكن قد ظهر بعد للعيان.

وسرنا في ذلك الطريق المحفوف بالأشجار وكان ريجامونتي أشد ما يكون سرورًا وابتهاجًا إذ راح يربت على ظهري بطريقته المألوفة وكأنه يحميني بينما تصلب بدني ووضعت يدي على صدري ضاغطًا على المسدس الذي كان في جيب سترتي الداخلي. وتركنا الطريق عند المفترق وانحرفنا في ممر مغطي بالحشائش يمتد أسفل جسر السكة الحديد. وكان الظلام هناك دامسًا حالكًا بسبب الجسر وكنت قد وضعت ذلك أيضًا في حسابي وكان ريجامونتي يسير في المقدمة وأسير أنا خلفه.

وعندما بلغنا المكان المتفق عليه غير بعيد من أحد أعمدة النور قلت له: "لقد أخبرتني بأن انتظرها هنا... سترى إنها لن تلبث أن تأتي..". فتوقف عن السير وأشعل سيجارة ثم أجابني قائلاً: "أنت ماهر في عملك كخادم في بار.. أما كقواد فلا نظير لك". وفي الواقع فإنه كان جارحًا في أسلوبه معي شأنه دائمًا.

لا شك أنها كانت بقعة موحشة وقد أضاء القمر أثناء صعوده خلفنا الأرض المستوية كلها تحت أقدامنا وكان الضباب الأبيض قد احتواها في غلالة رقيقة وانتشرت فيها هنا وهناك بقع قاتمة من النباتات ورواسب صغيرة من الطين وكان نهر التيبر يتلوى كالفضة بين ربوعها في دوامات صغيرة متتابعة. وخيل إلي أنني أحس بقشعريرة بسبب الضباب الرطب وقلت لريجامونتي وأنا أنشد بذلك مصلحتي أكثر من مصلحته "إنها بالطبع لا يمكنها أن تواظب على الموعد.. فهي تعمل وعليها أن تنتظر حتى ينصرف مخدوموها". فأجابني في الحال بقوله: "لا. لا. ها هي ذي قادمة". فاستدرت ورأيت شبحًا أسود لامرأة قادمة في الممر تجاهنا.

وقيل لي فيما بعد أن هذا المكان كان يغشاه ذلك النوع من النساء لمقابلة عملائهن. ولكنني لم أكن أعلم هذا. وكدت أظن في الحال أن الفتاة لم تكن من نسج خيالي بل كانت حقيقة واقعة. وفي أثناء ذلك كان ريجامونتي يتجه نحوها وقد امتلأ ثقة بنفسه وسرت أنا في أعقابه بطريقة آلية. وعندما أصبحت على بعد خطوات خرجت من الظلام إلى ضوء المصابيح وعندئذ رأيتها. وكادت تبعث الرعب في نفسي. فلابد أنها كانت في الستين من عمرها على الأقل. وكانت لها عينان غريبتان يبدو عليهما الخبل وقد أحاطت بهما دوائر سوداء كبيرة. وكان وجهها تعلوه طبقة سميكة من المساحيق وفمها قرمزي اللون وشعرها يتطاير في الهواء وقد أحاط بعنقها وشاح أسود.

كانت من ذلك النوع الذي يبحث عن أحلك الأماكن وأكثرها ظلامًا حتى لا تراه العيون. وإنه بلا شك لما يتعذر فهمه كيف أن مثل هؤلاء النساء بما هن عليه من شيخوخة وعجز ما زلن يوفقن في العثور على عملاء. ومع ذلك فإن ريجامونتي كان قد سألها قبل أن يقع عليها بصره بالفعل قائلاً بصفاقته المعهودة: "آنستي هل كنت تتوقعين مجيئنا"؟ وأجابته هي بنفس الصفاقة قائلة: "نعم بالطبع". ثم رآها بوضوح في النهاية وأدرك خطأه فخطا خطوة إلى الخلف وقال في تردد: "حسنًا. إني أسف. فأنا أخشى أنني الليلة لا أستطيع.. ولكن ها هو ذا صديقي"؟ ثم وثب جانبًا واختفى فوق الجسر. وأدركت أن ريجامونتي قد اعتقد أنه كان في نيتي أن انتقم لنفسي بتقديمه لوحش من هذا النوع بعد كل تلك الفتيات الجميلات.

كما أدركت أيضًا أن "جريمتي الكاملة" كانت في طريقها إلى الزوال. فوقفت انظر إلي – تلك المخلوقة المسكينة – التي قالت لي بعد أن رسمت

على وجهها ابتسامة كتلك التي تعلو قناعًا من أقنعة الكرنفال– حسنًا يا حبيبي الأشقر الجميل أتسمح لي بسيجارة؟ "وأسفت لها ولنفسي أيضًا – نعم بل أسفت لريجامونتي كذلك. كنت في أول الأمر أشعر بالكراهية تمامًا. وأغرورقت عيناي بالدموع وفكرت أنني بفضل هذه المرأة قد أنقذت من أن أصير قاتلاً. فقلت لها: "ليست معي سجائر ولكن هاك خذي هذا.. فإن بعته حصلت على ألف ليرة فإن بعته حصلت على ألف ليرة تقريبًا. "ووضعت مسدسي بيرتا" في يدها. ثم وثبت أنا أيضًا هابطًا منحدر الجسر وركضت نحو الطريق المحفوف بالأشجار. وفي تلك اللحظة مر قطار فيتريو عربة في أثر أخرى وقد أضيئت جميع نوافذه التي راحت تلقي أضواء حمراء في ظلام الليل. فتوقفت ونظرت إليه وهو يولي بعيدًا. ثم أنصت إلى صوته حتى انقطع عن مسامعي. وفي النهاية عدت إلى المنزل.

وفي اليوم التالي قال لي ريجامونتي في البار:

"ولا شك أنني كنت أعلم أنك قد نصبت لي فخًا في مكان ما.. ومع ذلك فلا عليك .. لقد كانت فكاهة "مستحبة".

فنظرت إليه وأدركت إنني لم أعد أكرهه رغم أنه كان لا يزال كما كان من قبل. فكانت له نفس الجبهة ونفس العينين ونفس الأنفس ونفس الشعر ونفس الذراعين الشعراوين اللتين كان لا يزال يستعرضهما بنفس الطريقة وهو يعمل على آلة القهوة. وفجأة شعرت بأنني أخف وزنًا عن ذي قبل وكأن ريح شهر إبريل التي كانت تهب على الستار المعلق على باب البار فتدفعه إلى الخارج قد هبت علي فتخللتني وسرت في داخل نفسي.

وسلمني ريجامونتي قدحين من القهوة لأقدمهما إلى اثنين من عملائنا كانا قد جلسا إلى مائدة في الخارج تحت ضوء الشمس فقلت له بصوت خفيض وأنا أتناولهما منه: "هل سنلتقي هذا المساء. لقد دعوت آميليا للحضور..". فألقى بنقل القهوة المستعمل تحت منضدة البار وأعاد ملئ المعايير بن جديد ثم أطلق بعض البخار من الآلة. وبعد ذلك أجاب في بساطة ودون آية مرارة قائلاً: "يؤسفني إنني لت أستطيع الحضور هذا المساء". فخرجت حاملاً القدحين. وأدركت أنني شعرت بخيبة الأمل لعدم حضوره في ذلك المساء وبالتالي عدم إمكانه اختطاف آميليا كما اختطف غيرها من الفتيات الأخريات جميعًا.

المطر في شهر مايو

ذات يوم سأعود إلى مونت ماريو، إلى "أوستيريا دي كاشياتوري"، ولكنني سأذهب إليها برفقة أصدقائي، أصدقاء الأحد الذين يعزفون الكونشرتينا ويراقص بعضهم البعض إن لم تكن هناك فتيات. ولن أجد في نفسي الشجاعة للذهاب وحدي إلى "أوستيريا دي كاشياتوري".

أجدني أحيانًا أحلم في الليل بموائد الفندق الصغير التي يتساقط عليها مطر شهر مايو الدفئ والأشجار العابسة التي تسقط منها قطرات الماء على الموائد، وتبدو من بينها السحب البيضاء في مرورها عبر الإطار الخلفي. ويظهر أسفل السحب المنظر العام لمنازل روما. ويبدو لي أنني أسمع صوت صاحب الفندق أنطونيو توتشي كما سمعته في ذلك الصباح وهو يصيح من قبو المئونة في غضب قائلاً: "ديرس ... ديرس"، ويبدو لي أنني أراها مرة أخرى وهي ترميني بنظرة اتفاق ومشاركة قبل نزولها إلى القبر بينما راحت خطاها الثابتة تدوي على الدرج.

لقد وصلت إلى هناك بمحض الصدفة عندما جئت إلى روما من الريف أو حينما عرضوا علي أن أعمل ساقيًا في مقابل مأكلي ومسكني دون أن يدفعوا لي شيئًا خاطبت نفسي قائلاً: "لن تكون لدي نقود ولكني سأعيش على الأقل كأحد أفراد الأسرة". ويا لها من أسرة في الحقيقة؟ فلقد وجدت جحيمًا بدلاً من الأسرة. كان صاحب الفندق أشبه بقرص الزبد في استدارته وشحمه ولكنه شحم "قذر مرير". كان ذا وجه رمادي عريض يتميز كنتيجة

لهذه البدانة بمجموعة كبيرة من الغصون الدقيقة التي تحيط به وبعينين صغيرتين خرزتين كعيني الثعبان، وكان يرتدي دائمًا القميص ومن فوقه الصديري تعلو رأسه قبعة رمادية ذات قمة مستدقة، جذبت فوق عينيه.

وكانت ابنته ديرس فيما يخص أخلاقها لا تفضل أباها فقد كانت هي أيضًا قاسية فظة سيئة الطبع ولكنها جميلة، كانت من أولئك النساء الصغيرات القويات متينات البنية اللائي يحركن أردافهن وأقدامهن في ثبات أثناء سيرهن كمن يقول: "أني أملك هذه الدنيا" كان لها وجه عريض وعينان سوداوان وشعر أسود وكانت شاحبة كالموت. وربما كانت الأم هي وحدها التي تتميز برقة الطبع: فقد كانت امرأة تناهز الأربعين من العمر وتبدو في الستين ويرجع ذلك إلى نحو لها وإلى أنفها وشعرها السبط اللذين يشبهان أنف المرأة العجوز وشعرها. ولكنها ربما كانت نصف بلهاء لا غير. وعلى أية حال فقد كان من الممكن أن تظن بها هذا عندما تراها واقفة أمام الموقد وقد التوى وجهها بكليته في ضحك خفي صامت. وإذا ما استدارت رأيت أن فمها خلو إلا من سن أو اثنتين.

وكان للفندق باب على الطريق وقد علقت عليه لافتة على شكل قوس طلي بلون دم الثيران وكتب عليه باللون الأصفر الكلمات التالية "أوستيريادي كاشياتوري لصاحبها أنطونيو توتشي". وكان هناك ممر يؤدي من الباب إلى الموائد التي وضعت تحت الأشجار في مواجهة المنظر العام لروما، وكان المنزل نفسه بسيطًا خشنًا تحيط به الجدران التي تكاد تخلو من النوافذ وقد غطى سقفه بالقرميد.

وكان الصيف أنسب المواسم: إذ يأتي الناس منذ الصباح حتى منتصف الليل، عائلات تصحب أطفالها وعشاق وجماعة من الرجال حيث يجلسون إلى الموائد ويشربون النبيذ ويأكلون طعام توتشي ويتأملون المنظر العام وكان الوقت لا يتسع لنا لالتقاط أنفسنا: فكان الرجلان يعملان دوامًا بينما لا تفتأ المرأتان تطهيان الطعام وتغسلان الأواني. وفي المساء ينتابنا التعب فنذهب إلى الفراش دون أن ينظر أحدنا في وجه الآخر. ولكن المتاعب كانت تبدأ في الشتاء أو حتى في الموسم الملائم عندما يسقط المطر. فكان الأب والابنة يتبادلان البغض والكراهية، ولكننا نترفق في التعبير إذا قلنا أن كليهما كان يكره الآخر. فقد كان من الممكن أن يقتل أحدهما الآخر في سرور.

كان الأب مستبدًا دنيئًا غبيًا لا يلبث أن يلجأ إلى الضرب لأتفه الأسباب. وكانت الابنة صلبة كالصخر كتومة مصممة على أن تكون لها الكلمة الأخيرة كما كانت عنيدة في كبرياء. وربما كره كلاهما الآخر لما بينهما من صلة الدم بصفة رئيسية. فالمعروف أنه ليس ثمة دافع للكراهية أقوى من صلة الدم. ولكنهما كان يتبادلان البغض بدافع المصلحة أيضًا. لأن الابنة كانت طموحة تعتقد أن لديهم بهذا المنظر العام لروما رأس مال مهيأ للاستثمار وإنهم كانوا بدلاً من ذلك يتركون كل شيء ليحل به الدمار. كانت ترى أن أباها ينبغي أن يبني منصة للرقص من الاسمنت ويتعاقد مع فرقة موسيقية ويعلق المصابيح الصينية ويحول المنزل إلى مطعم حديث الطراز يطلق عليه "مطعم البانوراما".

ولكن الأب لم يشأ أن يثق بنفسه أولاً لأنه كان دنيئًا وعدوًا لكل جديد. وثانيًا لأن ابنته هي صاحبة الاقتراح وكان يفضل أن يذبح على أن يذعن

لابنته. وكانت المشادات بينهما تنشب دائمًا أثناء جلوسنا إلى المائدة، فتشن هي عليه هجومًا بطريقة جارحة لأمر شخصي، ولنقل مثلاً لجشاءة أطلقها الأب أثناء الطعام. فيرد عليها بلغة فظة مجدافه. فتصر الفتاة على موقفها فيصفعها الأب على وجهها.

كان من الواضح أن الأب يجد متعة في ضرب ابنته إذ أن وجهه كان يرتسم عليه تعبير خاص أثناء قيامه بهذا العمل. فكان يطبق بأسنانه على شفته السفلى ويزر عينيه. أما بالنسبة للابنة فإن الصفعة كانت كالماء العذب للزهرة التي تزهر من جديد بالكراهية والحقد، فيمسك بها أبوها من شعرها ويمطرها بوابل من اللطمات فتسقط الصحاف والأقداح على الأرض وتنضم الأم أيضًا محاولة أن تتدخل ولكن بطريقة نصف بلهاء دون أن تفارق فمها الخالي من الأسنان تلك البسمة الدائمة. بينما يمتلئ قلبي بالسم فأترك المنزل وأذهب للنزهة في الطريق الرئيسي إلى "لاكاميلوتشيا".

ولو أنني لم أقع في حب ديرس لتركت العمل قبل ذلك بوقت طويل فأنا لست من ذلك الصنف من الرجال الذي يقع في الحب بسهولة. لأنني رجل عملي لا تسحرني الكلمات والنظرات. ولكن عندما تهب المرأة نفسها كلية بلحمها ودمها لا مجرد كلمات ونظرات فحسب – وأضف إلي ذلك إنها تفعل هذا مباغتة – فإن الرجل يقع في حبائلها تمامًا وكأنه وقع في فخ، وكلما بذل مجهودًا لتخليص نفسه زادت أسنان الفخ رسوخًا وعمقًا في بدنه.

ولا بد أن ديرس كانت تبيت النية على شيء من هذا القبيل حتى قبل أن تعرفني. وكان الأمر يستوي في نظرها سواء أكنت أنا أم أي رجل آخر

لأنها في نفس الليلة التي وصلت فيها جاءت إلي غرفتي بعد ان آويت إليها واستغرقت في النوم وانتقلت بي فجأة عن اللامبالاة إلي الحب العارم وكان ذلك وأنا بين النوم واليقظة حتى إنني لم أكد ادري ما أن كان ذلك حلمًا أم حقيقة. ولم تدر بيننا نحن الاثنين في الواقع آية أحاديث ولم تتبادل نظرات العيون أو لمسات الأيدي أو أيًا من هذه الحيل الخفية التي يستخدمها العشاق ليكشف كل منهم عن حبه للآخر. بل كان الأمر على العكس من ذلك وكأنني مع امرأة ساقطة ومبتذلة أيضًا. ولكن ديرس لم تكن امرأة ساقطة بل كانت معروفة في الواقع بالفضيلة والكبرياء. وكان هذا الاختلاف بالضبط هو الفخ الذي وقعت فيه.

أنا رجل صبور ومتزن بطبيعتي. ولكنني عنيف أيضا إذا ما أثارني الناس فان الدم يندفع بسرعة إلي رأسي، لذا يكفي أي شيء ليحيل وجهي إلى اللون القرمزي. ولقد أثارتني ديرس آنذاك وما لبثت أن اكتشفت السبب في ذلك. فقد أرادت ان انحاز إلى صفها ضد والدها. فوصفتني بالجبن لسماحي لوالدها بأن يضربها في حضوري ويمسك بها من شعرها. بل ويبلغ به الأمر أن يلقي بها على الأرض ويركلها بقدميه. وأنا لا أقول أنها لم تكن على حق في ذلك. فقد كنا عشيقين وكان ينبغي ان أدافع عنها. ولكنني أدركت أنها كانت تستهدف غرضًا آخر. ولكنه لم يعد في وسعي أن احتمل ذلك لأسباب مختلفة منها غضبي للإهانة فقد وصفتني بالجبن، وغضبي لعلمي بأنها تستخدم الكلمة لهدف متعمد. ومع هذا فقد غيرت من نغمتها قائلة:

_ كم يكون جميلاً لو أمكننا الزواج وافتتحنا معظم البانوراما. أنا وأنت مستقلين تمامًا.

كانت وديعة رقيقة عذبة خلابة. وكانت هذه أجمل فترة في علاقتنا. ولكنني لم أكد أتعرف عليها آنذاك وخيل إلي أن ثمة فخًا منصوبًا لي في مكان ما. وفي الواقع فإنها عادت فغيرت نغمتها فجأة وقالت سواء تزوجنا أو لم نتزوج فلا يمكننا أن نأمل في شيء ما دام أبوها هناك. وإننا باختصار، كما قالت لي صراحة، يجب أن نقتله. وقد حدث ذلك كما حدث في الليلة الأولى عندما جاءت إلى غرفتي دون إعداد، فقد أدلت باقتراحها هذا ثم انصرفت وتركتني أفكر فيه وحدي.

وفي اليوم التالي قلت لها أنها مخطئة لو ظنت أنني أساعدها في شيء كهذا، وأجابتني قائلة أنه يحسن بي في هذه الحالة أن أرحل على الفور لأنني لم يعد لي وجود في نظرها. وحافظت على كلمتها لأنها منذ ذلك اليوم لم تكد تنظر إلي. ولم يكد يتحدث أحدنا إلى الآخر. وكان رد الفعل لهذا إنني بدأت أبغض الأب لأنه بدا لي أنه السبب فيما حدث. وحدث أن الأب أثناء هذا الوقت كان يثير شجارًا كل يوم وبدا لي أنه كان يفعل ذلك عمدًا ليصبح مكروهًا من الجميع. وكان ذلك في شهر مايو وهو موسم الخير الذي يأتي فيه الناس إلى الفندق حيث يشربون النبيذ، ويأكلون الفول الأخضر ولكن بدلاً من ذلك ظل المطر ينهمر طيلة الوقت في سيولة جارفة على الريف الأخضر الغض الريان. ولم يأت أحد إلى الفندق إذ كان دائمًا حاد الطبع. وذات يوم دفع طبقه بعيدًا وهو جالس إلى المائدة قائلاً:

– أنت تتعمدين إعطائي هذا الحساء القذر اللزج.

فأجابته قائلة:

– لو تعمدت ذلك لوضعت لك فيه السم.

فنظر إليها وصفعها على وجهها بقوة فقفز المشط من شعرها. وكاد الظلام يخيم علينا بسبب المطر وبدا وجه ديرس في الظلام أبيض ساكنًا كالرخام وأخذ شعرها من الجانب الذي قفز منه المشط يتحلل في بطء شديد للغاية كأنه مجموعة من الحيات التي أخذت تستيقظ من رقدتها. فقلت لتوي:

– هلا امتنعت عن هذا من فضلك.

فأجابني قائلا:

– ليس هذا من شأنك.

ولكن عرته الدهشة لأنني تدخلت في ذلك لأول مرة. وراودني في تلك اللحظة شعور يقارب الكبرياء وكأنني أحمي مخلوقًا ضعيفًا والحال ليست كذلك بالضبط. وظننت إنني بهذه الطريقة سوف أمتلكها مرة أخرى وإن هذه هي الطريقة الوحيدة لامتلاكها مرة أخرى. فقلت في صوت عال:

– امتنع عن هذا. أتفهم ما أقول؟ فإنني لن أسمح لك بذلك.

وأحمر وجهي كالنار وصعد الدم إلى رأسي بينما أمسكت ديرس بيدي من تحت المائدة وأدركت أنني وقعت بين براثنها ولكن الوقت حينذاك كان قد فات. إذ إنه قفز واقفًا على قدميه وقال:

– وهاك صفعة أخرى لك.

وصفعني بقوة على وجنتي في شيء من الخبث فأمسكت بكوب وقذفت بكل ما فيه من نبيذ على وجهه. وأعتقد أنني كنت أفكر بلا شك في هذا

القدح وذلك النبيذ قبل وقوع الحادث بشهر كامل. فلشد ما سررت لحركتي هذه ولشد ما كرهت توتشي. وها هو ذا الآن يغطي النبيذ وجهه وهاأنذا قد قمت بتلك الحركة. ثم ركضت صاعدًا الدرج. سمعته يصيح من خلفي قائلاً:

– سأقتلك أيها القذر المتشرد!

ثم أغلقت باب غرفتي واتجهت إلى النافذة لأنظر إلى المطر المنهمر وإذا بي في غضب أتناول مطواة كنت أحتفظ بها في أحد الأدراج وأرشقها في قاعدة النافذة بقوة انكسر نصلها. حسنًا. فقد كنا هناك فوق قمة مونت ماريو المشئومة وربما لو كنا في روما لما وافقت على ذلك ولكن هناك أصبح كل شيء طبيعيًا وما كان مستحيلاً في اليوم السابق استقر عليه الرأي في اليوم التالي.

وهكذا تم التفاهم بيني وبين ديرس واستقر رأينا سويًا على الوسيلة واليوم والساعة. فقد تعود توتشي في الصباح النزول إلى قبو المئونة ليأتي بحصيلة اليوم من النبيذ وكانت ديرس معه حاملة الزجاجة الكبيرة لتملأها. وكان القبو تحت مستوى سطح الأرض يؤدي إليه درج قصير مثبت في إطار يستند إلى الحائط: ويتألف من سبع درجات تقريبًا. وقررنا أن أنضم إليهما في القبو وبينما ينحني توتشي ليسكب النبيذ من البرميل أضربه على رأسه بقضيب قصير من الحديد كان يستخدم في تحريك النار ثم نجذب السلم بعيدًا وندعي أنه سقط على الأرض وكسرت جمجمته. وترددت بين الرغبة والأحجام ولكنني لما كنت غاضبًا فقد قلت لها: "سأفعل هذا لأظهر لك

أنني لست خائفًا... ولكنني سأرحل بعد ذلك ولن أعود". فأجابتني قائلة: "في هذه الحال يحسن بك ألا تفعل شيئًا وأن ترحل فورًا.. فأنا أحبك ولا أريد أن أفقدك". كانت تعرف كيف تتظاهر بالحب عندما تريد ذلك. فقلت لها إنني سأفعل ذلك وأظل معها حتى نفتتح المطعم.

وفي اليوم المحدد أمر توتشي ديرس بإحضار الزجاجة الكبيرة ثم سار تجاه باب القبو الذي كان في الركن الأقصى من المنزل. وكان المطر ينهمر كالمعتاد والظلام يكاد يخيم في داخل الفندق. فأحضرت ديرس القنينة الكبيرة وتبعت والدها. ولكنها قبل أن تنزل إلى القبو استدارت نحوي وأتت إيماءة واضحة تمامًا تدل على التفاهم. ورأت أمها هذه الحركة وهي واقفة أمام الموقد فظلت في مكانها، تحملق فينا فاغرة فاها. فنهضت عن المائدة واتجهت إلى الموقد حيث مرت ديرس وعبرت بعينيها عن معان كثيرة ولكن كان من الواضح أنها لن تتكلم وكان الأب يصرخ من القبو قائلاً: "ديرس. ديرس" فردت عليه قائلة: "إني قادمة". وأذكر أنني تصورت قوامها جذابًا للمرة الأخيرة وهي تهبط الدرج بمشيتها الشهوانية الثابتة حانية عنقها الأبيض المستدير تحت الدعامة الخشبية المثبتة في أعلى الباب.

وفي هذه اللحظة فتح الباب المؤدي إلى الحديقة ودخل رجل يحمل غراره مبتلة على كتفيه، كان سائق عربة نقل. قال دون أن ينظر إلي:

– هلا مددت لنا يد العون أيها الزميل؟

فتبعته بحركة آلية إلى الخارج وأنا مازلت ممسكًا بالمحراك. لقد كانوا يقومون ببناء حظيرة للمزرعة القريبة من الفندق وقد غاصت عجلات العربة

المحملة بالأحجار في الطين عند البوابة وعجز الحصان عن الحركة. وبدا السائق وهو رجل دميم الخلقة مشوه الجسم وحشي المظهر، وقد استبد به الغضب تمامًا. فوضعت المحراك على أحد أعمدة البوابة ثم ثبت حجرين تحت العجلات ودفعت العربة. وجذب السائق الحصان إلى الأمام من رسنه. وكان المطر ينهمر سيولاً على أسوار البيلسان السميكة الخضراء وأشجار الأكاسيا المزهرة تعبق الجو. ولكن العربة لم تتحرك وانطلق السباب من فم السائق. ثم تناول السوط وانهال ضربًا على الحصان ثم استبدت به الشراسة فأمسك بالمحراك الذي وضعته على أحد أعمدة البوابة. وكان من الواضح أنه خرج عن طوره من الغضب ليس بسبب العربة بل بسبب حياته بأسرها، لقد كان يكره الحصان، كما لو كان شخصًا.

وخاطبت نفسي قائلاً: "إنه سيقتله الآن". فكنت على وشك أن أصيح قائلاً: "كلا. دع هذا المحراك". ولكن خطر لي في تلك اللحظة أنه لو قتل الحصان لأصبحت في أمان. وبدا لي أن غضبي كله كان ينتقل إلى جسد هذا السائق الذي بدا كمن تملكته روح شريرة. وفي الواقع فإنه قد ارتمى على عريش العربة ودفعها دفعة أخرى ثم راح يضرب الحصان على رأسه بالمحراك. فأغمضت عيني عند الضربة الأولى ثم سمعته يواصل الضرب وظلت قواي تخور طيلة الوقت حتى أوشكت على الإغماء. ثم فتحت عيني مرة أخرى ورأيت الحصان وقد سقط على ركبتيه بينما ظل السائق يضربه ولم يكن ذلك آنئذ لحثه على النهوض بل لقتله بالفعل. فسقط الحصان على جنبه وراح يرفس الهواء بسيقانه في ضعف ثم سقط رأسه في الوحل. كان يعلم أنه قتله. فمررت بالقرب منه ولكن دون أن أحتك به ثم بدأت أسير في الطريق الرئيسي.

وجاء الترام المتجه إلى روما فركضت ووثبت إلى داخله ثم نظرت خلفي فرأيت للمرة الأخيرة لافتة الفندق: "أوستيريا دي كاشياتوري لصاحبها أنطونيو توتشي" بين أوراق الشجر المبتلة بأمطار شهر مايو.

لا تنقب كثيراً

كان باستطاعة آجنيز أن تعطي إنذارًا بدلاً من رحيلها هكذا، دون أن تقول لي حتى أن أذهب إلى الجحيم. أنا لا أدعي الكمال ولو أنها أخبرتني بما تحتاج إليه لأمكننا أن نناقش الأمر. ولكن لا. لا شيء مطلقًا. فإنها لم تفه بكلمة واحدة طوال سنتين من الحياة الزوجية. وذات صباح استغلت لحظة لم أكن فيها هناك وأنسلت خارجة كخادمة عثرت على مكان أفضل. ذهبت ولكنني حتى الآن وبعد مضي ستة أشهر على رحيلها لا أدري لماذا فعلت ذلك.

وفي ذلك الصباح بعد أن ابتعت لوازم المنزل من السوق المحلية، فأنا أحب شراء اللوازم بنفسي: إذ أنني أعرف الأسعار وأعرف ماذا أريد وأحب المساومة والمجادلة والفحص والاختيار. فأنا أحب أن أعلم من أي نوع من الحيوان تؤخذ شريحة اللحم التي آكلها ومن أية سلة تختار تفاحتي.

بعد ذلك غادرت المنزل مرة أخرى لأشتري ياردة ونصف من الحاشية المهدبة لأحيكها بالستار المعلقة في غرفة الطعام. ولما كنت لا أرغب في أن أنفق أكثر من مبلغ معين فلقد ارتدت أماكن كثيرة قبل أن أعثر على الشيء الذي يناسبني بالضبط في أحد المحال الصغيرة في فياديلوميلتا. وكانت الساعة قرابة الحادية عشرة والثلث عندما بلغت المنزل. ودخلت غرفة الطعام لأقارن بين لون الحاشية ولون الستار فإذا ببصري يقع في الحال على المحبرة والقلم ورسالة على المائدة. وكان مما لفت نظري أكثر من أي شيء آخر بقعة حبر

كانت على مفرش المائدة. فخاطبت نفسي قائلاً: "ما الذي يدعوها بحق السماء إلى ارتكاب مثل هذا الحمق؟... لقد صنعت بقعة على مفرش المائدة. فأبعدت المحبرة والقلم والرسالة وأخذت المفرش ثم ذهبت به إلى المطبخ وهناك تمكنت من إزالة البقعة بعد حكها كثيرًا. ثم عدت إلى حجرة الطعام وأعدت المفرش إلى مكانه. وعندئذ فقط تذكرت الرسالة وكانت معنونة باسمي: آلفريدو ففضتها وقرأت ما يلي:

"لقد قمت بعمل المنزل. وفي إمكانك أن تعد الغذاء أنت بنفسك. فأنت معتاد تمامًا على هذا. وداعًا. إني عائدة إلى منزل أمي. آجنيز".

وظللت لحظة لا أفهم شيئًا. ثم قرأت الرسالة مرة أخرى وفجأة أدركت أن آجنيز قد ذهبت. وتركتني بعد مضي سنتين على حياتنا الزوجية. وبحكم العادة وضعت الرسالة في درج البوفيه حيث احتفظ بالإيصالات والخطابات ثم جلست على مقعد بجانب النافذة. ولم أدر كيف أفكر فقد أخذت على غرة تمامًا ولم أصدق ما حدث. وبينما كنت جالسًا أفكر على هذه الصورة وقع بصري على الأرض فرأيت ريشة بيضاء صغيرة كانت بغير شك قد سقطت من الفرشاة عندما كتبت بها آجنيز. فالتقطت الريشة وفتحت النافذة وألقيت بها. ثم تناولت قبعتي وغادرت المنزل.

وبينما كنت أسير في طريقي – واطئًا بقدمي حجرًا ومتجاوزًا الآخر عملاً بإحدى رذائلي الخاصة – أخذت أسائل نفسي عما أكون قد ارتكبته في حق آجنيز لتتركني على هذه الصورة القاسية. وكأنها تتعمد إساءتي. وفكرت في أول الأمر قائلاً لنفسي: فلنر أن كان في مقدور آجنيز أن تلومني لأي

نوع من الخيانة مهما كان تافهًا". فأجبت نفسي قائلاً: "لا شيء مطلقًا. لا شك في أنني لم أغرم قط بالنساء إلى الحد الذي يفقدني صوابي. فأنا لا أفهمهن وهن لا يفهمنني، ويمكن أن يقال إنه لم يعد لهن وجود في نظري منذ أن تزوجت إلى حد أن آجنيز نفسها ألفت أن تثيرني بسؤالي من وقت لآخر قائلة: "ماذا تفعل لو وقعت في حب امرأة أخرى"؟ فأجيبها قائلاً: "هذا محال فأنا أحبك وسيبقى حبي هذا طيلة حياتي". وعندما أعدت التفكير في ذلك آنئذ بدا لي أنني أتذكر أن عبارة "طيلة حياتي" هذه لم تكن تسرها مطلقًا. بل على العكس فقد كان وجهها يعبس وتعود إلى صمتها.

ثم تحولت إلى خواطر أخرى تختلف كل الاختلاف وتاقت نفسي لأن أعرف إن كانت آجنيز قد تركتني لأسباب مادية أو لمعاملتي إياها بصورة عامة في الواقع. ولكنني وجدتني في هذه النقطة أيضًا مستريح الضمير. أما فيما يخص النقود فقد كنت حقًا لا أعطيها شيئًا قط إلا لأسباب استثنائية ولكن ما حاجاتها إلى النقود؟ فأنا نفسي كنت في متناول يدها دائمًا وعلى استعداد لدفع ما يلزمها. وأما عن طريقة معاملتي إياها فلم يكن فيها أثر للقسوة بحق السماء. وفي إمكانكم أن تحكموا أنتم أنفسكم. كنا نذهب إلى السينما مرتين في الأسبوع ونرتاد المقهى مرتين كنا نذهب إلى السينما مرتين في الأسبوع ونرتاد المقهى مرتين كذلك أسبوعيًا ويستوي الأمر أن تناولت الدندورمة أو قدحًا من القهوة. كما كنا نشتري مجلتين مصورتين شهريًا ونقرأ الجريدة يوميًا. وفوق ذلك كنا نذهب إلى الأوبرا في الشتاء.

وفي الصيف نقضي الأجازة في مارينو في منزل والدي. يكفي هذا فيما يخص وسائل التسلية، وبانتقالنا إلى موضوع الملابس نجد أن آجنيز لم يكن

لديها ما تشكو منه. فعندما كانت تحتاج إلى شيء سواء أكان سترة صغيرة أو زوجًا من الجوارب أو منديلاً فقد كنت دائمًا على استعداد لذلك. إذ كنت اذهب معها إلى المحال وأعاونها على اختيار السلعة وأدفع ثمنها دون جلبة أو ضوضاء.

كذلك كان الأمر مع حائكي الثياب وتجار القبعات فلم يحدث مرة واحدة أن قالت لي: "إني في حاجة إلى قبعة أو ثوب". ولم أجبها قائلاً: "هيا. إني ذاهب معك" وفضلاً عن هذا يجب أن أعترف بأن آجنيز لم تكن ملحة في مطالبها: بل كادت تمتنع تمامًا بعد مضي السنة الأولى عن شراء أية ملابس جديدة. وكان علي في الواقع أن أذكرها بأنها في حاجة إلى هذا الثوب أو ذاك. ولكنها كانت تجيبني بأن لديها الملابس التي ابتاعتها في السنة السابقة وأن الأمر لا أهمية له. حتى أصبحت أعتقد في النهاية أنها تختلف بلا شك عن غيرها من النساء في هذه الناحية وإنها لا تهتم بحسن هندامها..

إذن فلا علاقة لما حدث بالناحية العاطفية أو المادية. وبقى بعد ذلك ما يسميه المحامون "بعدم توافق الطباع". فسألت نفسي قائلاً: "ماذا يمكن أن يكون هناك من عدم توافق في حين أنه لم ينشب بيننا نزاع قط مدة عامين ولا مرة واحدة؟ فقد كنا دائمًا معًا ولو كان هناك عدم توافق إذن لكشف عن نفسه في وضوح. ولكن آجنيز لم تكن تعارضني قط بل أكاد أقول أنها لم تكن تتكلم مطلقًا. وكانت خلال بعض الأمسيات التي كنا نقضيها في المقهى أو في المنزل لا تكاد تفتح فاها. وكنت أنا أتكلم طيلة الوقت وأنا لا أنكر هذا فإني أحب الكلام وأحب الاستماع لنفسي وخاصة إذا كنت مع شخص تربطني به علاقة وثيقة. وطريقتي في الحديث هادئة منسقة خالية من

الارتفاع والانخفاض الشديدين. وإن تناولت موضوعًا بالهجوم فأني أقوضه تقويضًا من أعلاه إلى أسفله من جميع نواحيه. كما أنني أوثر الحديث في الموضوعات المنزلية، فأميل إلى الكلام عن أسعار السلع وعن ترتيب الأثاث وعن طهي الطعام وتدفئة المنزل وعن أي لون من ألوان هذا اللغو.

وفي الواقع فإنني لا أمل مطلقًا التحدث في مثل هذه الأشياء بل إنها تثير اهتمامي إلى حد إنني كثيرًا ما أتناولها بالحديث من جديد وأسوق نفس الحجج. ولنكن منصفين فلا شك في أن هذه موضوعات الحديث المناسبة للمرأة. وإلا فعم نتحدث؟ وعلى أية حال فإن آجنيز كانت تنصت في انتباه – أو على الأقل هذا هو ما بدا لي. ولم يحدث إلا مرة واحدة أثناء شرحي لطريقة تشغيل سخان الماء أنني أدركت أنها قد استغرقت في النوم. فأيقظتها وسألتها قائلاً: ماذا؟ هل مللت الحديث؟ فأجابتني قائلة في الحال "لا. بل إني متعبة. فقد أرقت ليلة أمس".

والأزواج عادة لديهم مكاتبهم أو محالهم أو ليس لديهم شيء البتة فيخرجون في صحبة أصدقائهم. أما في حالتي فقد كان آجنيز هي مكتبي ومحلي وأصدقائي فلم أكن أتركها وحدها لحظة واحدة بل كنت أمكث إلى جانبها وربما أثار هذا دهشتكم حتى أثناء طهيها الطعام. وإني لشغوف بطهي الطعام حتى إنني كنت أرتدي وزرة كل يوم قبل الوجبات وأعاون آجنيز في المطبخ وأقوم بشتى ألوان العمل. فكنت أقشر البطاطس وأنظف اللوبيا وأعد الحشو وأرقب الأواني. وكنت أقدم إليها عونًا ملموسًا حتى إنها كثيرًا ما كانت تقول لي:

"افعل أنت هذا.. فإني أشكو صداعًا. وسأضطجع على الفراش". وعندئذ كنت أطهو الطعام وحدي, بل أمكنني أن أجرب ألوانًا جديدة من الطعام بمعونة كتاب الطهي. وإنه لما يؤسف له أن آجنيز لم تكن نهمة, بل لقد فقدت في الواقع شهيتها تمامًا في الأيام الأخيرة ولم تكن تلمس الطعام. وقالت لي ذات مرة – وكان هذا بالطبع على سبيل المزاح فحسب. "لقد أخطأت بمولدك رجلاً. فأنت امرأة في الحقيقة بل ربة المنزل في الواقع" ويجب أن أعترف بأن هذا القول كان على جانب من الصدق, فإنني في الواقع فضلاً عن طهو الطعام أميل إلى غسل الملابس وكيها وحياكتها بل أحب في لحظات الفراغ أن أعيد تنسيل حواشي المناديل.

وكما قلت فإنني لم أكن أفارقها قط حتى عندما تأتي لزيارتها أمها أو إحدى صديقاتها. بل حتى عندما صح عزمها لسبب أو لآخر على أن تتلقى دروسها في اللغة الإنجليزية. فلكي أكون معها بذلت أنا أيضًا جهودًا لأتعلم تلك اللغة البالغة الصعوبة. لقد بلغ ارتباطي بها أشده إلى حد إنني كنت أجعل من نفسي مثارًا للسخرية في بعض الأحيان –كما حدث ذات مرة – في أحد المقاهي عندما قالت لي شيئًا في صوت خفيض لم أسمعه فتبعتها مباشرة إلى دورة المياه أوقفني الخادم قائلاً لي أنها دورة المياه حيث أوقفني الخادم قائلاً لي إنها دورة المياه حيث أوقفني الخادم قائلاً لي أنها دورة المياه الخاصة بالسيدات وأنه لا يمكنني الدخول.

حقًا ليس من اليسير العثور على زوج مثلي. وكثيرًا ما قالت لي: "يجب أن أذهب إلى هذا المكان أو ذاك لأقابل هذا الشخص أو ذاك وهو لا يهمك أمره في شيء". ولكنني أجيبها قائلاً: "إني ذاهب معك أيضًا.. فليس

لدي ما أفعله على أية حال" ثم ترد علي قائلة: "أما فيما يخصني فلتأتي معي ولكنني أحذرك سينتابك الملل". ولكن لم يحدث ذلك قط. فلم يكن ينتابني الملل مطلقًا. فأقول لها بعد ذلك "أترين إنني لم أمل الحديث"؟! لقد كنا في الواقع لا نفترق.

وظللت أفكر متسائلاً طيلة الوقت بلا جدوى عن السبب الذي من أجله تركتني آجنيز حتى بلغت محل أبي. وهو محل لبيع الأشياء المقدسة ويقع بالقرب من ميدان مينرفا. وأبي رجل لم يبلغ بعد سن الشيخوخة ذو شعر اسود مموج وشارب أسود تبدو من تحته ابتسامة لم أفهمها قط. وهو آية في الرقة والهدوء لا يفتأ يسلك سلوكًا مهذبًا وربما كان ذلك لأنه ألف التعامل مع القساوسة والأتقياء من الناس. ولكن أمي التي تعرفه جيدًا تقول أن أعصابه كلها مختبئة في داخله. ومررت بكل الصناديق الزجاجية المملوءة بحلل القداس والأواني المقدسة واتجهت مباشرة إلى الغرفة التي تقع خلف المحل حيث يوجد مكتبه. وكان كعادته يسوي حساباته وهو يعض شاربه متأملاً. قلت له لاهثًا: "أبي لقد تركتني آجنيز".

فتطلع إلي وبدا لي أنه كان يبتسم من تحت شاربه. ولكن ربما كان هذا مجرد وهم, فقال: "يؤسفني هذا. يؤسفني هذا حقًا.. ولكن كيف حدث ذلك؟ فرويت له القصة كلها؟ واختتمت حديثي قائلاً: لا شك أنني غاضب لهذا.. ولكن الذي يهمني معرفته أكثر من أي شيء آخر هو السبب في أنها تركتني". فسألني قائلاً وهو حائر: "آلا تعرفه".

– كلا.

فظل صامتًا مدة لحظة ثم قال متنهدًا: "إني أسف يا الفريدو. ولكني لست أدري ماذا أقول لك.. أنت ابني وأنا أعولك.. أنت ابني وأنا أعولك. كما أني مشغوف بك للغاية – أما عن زوجتك – فهذا شأنك".

– نعم. ولكن لماذا تركتني؟

فهو رأسه ثم قال:

– لو كنت مكانك لما نقبت كثيرًا. دع الأمر.. ففيم يهمك أن تعرف الأسباب؟

– إنه يهمني كثيرًا.. أكثر من أي شيء آخر.

وفي هذه اللحظة دخل قسيسان ونهض والدي لاستقبالهما قائلاً لي: عد إلي في وقت آخر.. وعندئذ نتحدث معًا.. فأنا الآن مشغول. وأدركت أنه لا يمكنني أن أتوقع المزيد منه. فانصرفت.

ولم يكن منزل أم آجنيز بعيدًا. بل كان يقع في شارع فيتوريو. وفكرت أن الشخص الوحيد الذي يمكنه أن يفسر لي في رحيلها هو آجنيز نفسها. فذهبت إلى هناك. وصعدت إلى الدرج ركضًا وأدخلت إلى غرفة الجلوس. ولكن بدلاً من آجنيز دخلت أمها. وكانت هي أيضًا تملك محلاً. ولكنني لم أكن أطيق تلك المرأة بشعرها المصبوغ باللون الأسود ووجنتيها الحمراوين ومظهرها الباسم الماكر المزيف. وكانت ترتدي عباءة ذات وردة على صدرها. وما أن رأتني حتى قالت لي في إخلاص مفتعل: "أوه يا الفريدو. ماذا تفعل هنا"؟

فأجبتها قائلاً: "أنت تعلمين لماذا جئت. لقد تركتني آجنيز".

فقالت في هدوء: "نعم إنها هنا. يا بني العزيز ما الذي يمكن عمله في هذا؟ أنها أشياء تحدث ولا حيلة لنا فيها".

– ماذا؟ هل هذا هو الجواب الوحيد الذي يمكن أن تقوليه.

فتأملتني لحظة ثم سألتني قائلة: هل أخبرت والديك بما حدث؟

– نعم. لقد أخبرت والدي.

– وماذا قال؟

وما شأن بحق السماء بما قاله والدي؟ فأجبتها على مضض قائلاً: "إنك تعرفين والدي.. فهو يقول أنه يحسن بي ألا أنقب كثيرً".

– هو محق تمامًا يا بني العزيز.. فلا تنقب كثيرًا.

فصحت في حماس قائلاً:

– ولكن حقًا لماذا تركتني؟ ما الذي فعلته لها؟ لم لا تخبريني؟

وبينما كنت أتكلم والغضب يملأ صدري وقع بصري على المائدة. وكان يغطيها مفرش يتوسطه حامل أبيض موشي وقد وضع عليه إناء للزينة به زهور القرنفل الحمراء. ولكن الحامل الصغير الأوسط كان معوجًا. فإذا بي بحركة آلية وعلى غير وعي مني أرفع الإناء وأصلح من وضع الحامل الصغير بينما راحت هي تنظر إلي ولا تجيبني. ثم قالت لي: "حسنًا فعلت. لقد أصبح الحامل الصغير في الوسط تمامًا الآن, أنني لم ألحظ ذلك ولكنك رأيته في الحال.. حسنًا فعلت.. والآن يحسن بك أن تنصرف يا بني العزيز".

ونهضت من مقعدها ونهضت أنا أيضًا في أثناء ذلك. وأردت أن أسألها أن كان يمكنني رؤية آجنيز. ولكنني أدركت أنه لا جدوى من ذلك. كما أنني خشيت لو أنني رأيتها أن أفقد وعيي وأفعل أو أقول شيئًا سخيفًا. فانصرفت ومنذ ذلك اليوم حتى الآن لم أرى زوجتي قط. ولكنها قد تعود إلي في يوم من الأيام عندما ترى أن زوجًا مثلي لا يمكن أن تصادفه في كل يوم من أيام الأسبوع. ولكنها لن تتجاوز عتبة الدار حتى تفسر لي أولاً السبب الذي من أجله تركتني.

الطفل

عندما زارتنا السيدة الطيبة كانت في مهمة كلفتها بها "جمعية رعاية الطفل وسألتنا شأن كل شخص آخر عن السبب في أننا جلبنا إلى العالم هذا العدد الكبير من الأطفال، أخبرتها زوجتي التي كانت خائرة النفس في ذلك اليوم بالحقيقة الواضحة الصريحة. إذ قالت: "لو كان في أمكاننا لذهبنا إلى السينما في المساء.. والحال أننا لما كنا نفتقر إلى النقود فإننا نذهب إلى الفراش وهكذا تولد الأطفال. وما أن سمعت السيدة هذا القول حتى بدا عليها الامتعاض وانصرفت دون أن تنبس بكلمة ولمت زوجتي لأنه ليس من الحكمة دائمًا أن يقول الإنسان وقبل أن يقوله عليه أن يعرف من يخاطب.

عندما كنت صغيرًا لم أتزوج بعد تعودت أن أتسلى بقراءة الأنباء المحلية في الصحف، حيث توصف جميع الكوارث التي يمكن أن تحل بالناس مثل السرقات وجرائم القتل والانتحار وحوادث الطريق. ومن بين هذه الكوارث جميعًا لم يبدو لي مستحيلاً سوى أن أصير في حالة يرثى لها. كما قالت الجريدة وهي أن تبلغ التعاسة بشخص ما حدا يجعله جديرًا بالرثاء دون أن يرجع ذلك إلى أية كارثة معينة بل إلى البقاء على قيد الحياة فحسب.

لقد كنت صغير السن وقتذاك، كما سبق أن قلت، ولم أكن أعرف بعد ماذا يعني أن يعول المرء أسرة كبيرة. ولكنني أرى الآن لدهشتي أنني قد تحولت تدريجيًا إلى ما يعنونه بالضبط "بحالة يرثى لها" فكنت اقرأ مثلاً العبارة التالية: "إنهم يعيشون في فقر مدقع. أو: غنهم يعيشون في منزل لا يحمل من

صفات المنزل إلا الاسم فقط". حسنًا. إنني أعيش في "تومارانشيو" مع زوجتي وأطفالي الستة في غرفة خلت من كل شيء إلا عددًا كبيرًا من الحشايا الموضوعة على الأرض. وعندما كان يسقط المطر يتدفق الماء علينا تمامًا كما يتدفق على المقاعد في فياريبيتا أو اقرأ مثلاً وما أن اكتشفت المرأة التعسة أنها حامل حتى اتخذت قرارًا إجراميًا لتخلص نفسها من ثمرة شهواتها. حسنًا. لقد اتخذنا أيضًا أنا وزوجتي بالاتفاق المشترك هذا القرار عندما اكتشفنا أنها حامل للمرة السابعة, وقررنا في الواقع أننا حالمًا يصير الجو دافئًا سنترك الطفل في كنيسة مستودعينه إحسان أول من يعثر عليه.

ونقلت زوجتي إلى المستشفى مستعينة بخدمات أولئك السيدات الطيبات لتضع طفلها ثم عادت بالطفل إلى تومارانشيو حالما شعرت بالتحسن. وما أن دخلت الغرفة حتى قالت: "أتعلم أنه رغم أن المستشفى دار للعلاج فإنني كنت أتمنى أن أبقى بها بدلاً من العودة إلى هنا؟ عندئذ أطلق الطفل صرخة مدوية على صورة لا يمكن تصديقها وكأنه أدرك معنى هذه الكلمات. كان الطفل ذكرًا جميلاً قويًا ذا صوت جمهوري حتى أنه عندما كان يستيقظ من نومه أثناء الليل ويأخذ في البكاء يحرم النوم علينا جميعًا.

وعندما أقبل شهر مايو وأصبح الجو دافئًا إلى حد يكفي للخروج بدون معطف بدأنا رحلتنا من تومارانشيو إلى روما. وكانت زوجتي تضم الطفل بقوة إلى صدرها وقد تدثر بكمية كبيرة من الخرق البالية حتى أنه كان يمكنها أن تتركه في حقل من الثلج دون أن يلحقه أذى وعندما بلغنا المدينة أخذت تثرثر بلا انقطاع. وربما كان ذلك لتخفي نفورها مما جئنا من أجله.

وبدت منهكة القوى لاهثة الأنفاس شعثاء الشعر وجحظت عيناها في محجريهما، فكانت تتكلم حينًا عن الكنائس المختلفة التي يمكننا أن نتركه فيها موضحة لي أنها يجب أن تكون كنيسة يغشاها الأغنياء لأنه إذا قدر للطفل أن يلتقطه فقير مثلنا فحرى بنا أن نحتفظ به نحن أنفسنا. وتقول لي حينًا آخر أنها تصر على أن تكون الكنيسة مخصصة للسيدة العذراء لأن العذراء كان لها ولد أيضًا وسيكون في مقدورها أن تفهم أشياء معينة وهكذا تحقق لها رغبتها.

ولكني وجدت هذه الطريقة في الحديث مرهقة للغاية فقد أشاعت في نفسي الاضطراب – ومما زاد في ذلك إحساسي أنا أيضًا بالمهانة ونفوري مما كنت بصدده. غير إنني ظللت أقول لنفسي إنني يجب أن أحتفظ بهدوئي وأن أبث في نفسها الشجاعة. وقد أثرت بعض الاعتراضات وكان الدافع الرئيسي لذلك هو أن أوقف السيل المتدفق من كلامها ثم قلت: "لدي اقتراح ما.. لما لا نتركه في كنيسة القديس بطرس"؟ فترددت لحظة ثم أجابتني قائلة: "كلا، إنه مكان كبير للغاية.. فقد يراه الناس هناك.. إنني أفضل أن أجرب تلك الكنيسة الصغيرة الكائنة في شارع كوندوتي حيث تقوم جميع تلك المحال الجميلة.. وحيث يذهب كثير من الأغنياء – هذا هو المكان اللائق".

فركبنا الأتوبيس حيث جلست صامتة بين الناس وكانت من وقت لآخر تعيد وضع البطانية حول الطفل في مزيد من الأحكام أو تكشف عن وجهه في حذر وحرص وتتأمله. كان الطفل نائمًا وقد غاص وجهه الأبيض المشرب بالحمرة في لفائفه. وكان مثلنا رث الملابس. فقد كان قفازه الصوفي الأزرق الصغير هو الشيء الوحيد الأنيق في ملبسه.

وفي الواقع فإنه كان يمد يديه إلى الخارج ويفتحهما على سعتهما وكأنه يعرضه للأنظار. وما إن هبطنا من السيارة في لأرجو جولدوني حتى أخذت زوجتي في الثرثرة من جديد وتوقفت عند واجهة أحد محال المجوهرات ثم أشارت إلى الحلي المعروضة على الرفوف وقد وضعت في المخمل الأحمر قائلة لي: "أنظركم هي جميلة.. إن الناس في هذه الشوارع يجيئون فقط لشراء المجوهرات والأشياء الجميلة الأخرى.. أما الفقراء فإنهم لا يأتون إلى هنا.. وهم أثناء طوافهم بالمحال يدخلون الكنيسة لحظة لتأدية الصلاة.. عندئذ وهم لا يزالون في حالة نفسية حسنة يلحظون الطفل ويأخذونه.. قالت كل هذا وهي واقفة، تنظر إلى المجوهرات وقد ضمت طفلها في قوة إلى صدرها واتسعت حدقتاها بينما راحت تتكلم وكأنها تحدث نفسها.

ولم أجد في نفسي الجرأة على معارضتها ودخلنا الكنيسة التي كانت صغيرة وقد طلبت كلها لتبدو كالرخام الأصفر. وكان بها عدد من المعابد الصغيرة وهيكل مرتفع. وقالت زوجتي إنها كانت تتذكرها على صورة مختلفة وأنها آنذاك عند رؤيتها مرة أخرى لم تعجبها قط. ومع ذلك فقد غمست أصابعها في الماء المقدس ورسمت الصليب على صدرها. ثم بدأت تطوف بأرجاء الكنيسة في بطء وهي تتفحصها حاملة الطفل بين ذراعيها وقد علا وجهها الشك وعدم الرضا. وكان المصباح المعلق في القبة يرسل ضوءًا باردًا واضحًا بينما أخذت زوجتي تنتقل من معبد جانبي إلى آخر وهي تتأمل كل شيء – المقاعد والهياكل والصور – لترى ما إذا كانت مكانًا مناسبًا لتترك فيه الطفل بينما رحت أتعقبها عن بعد مراقبًا الباب طيلة الوقت.

وفجأة دخلت سيدة شابة ترتدي ملابس حمراء سيدة شابة ترتدي

ملابس حمراء وكان شعرها أشقر كالذهب. ثم جثت على ركبتيها وقد تمددت أثناء ذلك تنورتها المحكمة. ولم تكد تصلي دقيقة واحدة حتى رسمت الصليب على صدرها ثم غادرت الكنيسة مرة أخرى دون أن تنظر إلينا. وفجأة قالت زوجتي التي كانت تلاحظها: "كلا.. لا جدوى من هذا.. فإن الذين يأتون إلى هنا يفعلون كما فعلت هذه السيدة الصغيرة. فهم يهرعون بالذهاب ليأخذوا نصيبهم من اللهو والتمتع بالنظر إلى المحال.. هيا دعنا نذهب". وغادرت الكنيسة وهي تقول هذه الكلمات.

ثم عدنا أدراجنا مسافة صغيرة في الطريق الرئيسي ونحن لا نفتأ نهرول وكانت زوجتي تسير في المقدمة وأسير أنا في أثرها. وفي مكان ما بالقرب من بياتزا فينيزيا داخلنا كنيسة أخرى. وكانت أكبر من سابقتها بكثير ولكنها مظلمة تقريبًا وقد امتلأت بالستائر والزينات المذهبة والعلب الزجاجية المزدحمة بالقلوب الفضية التي كانت تلمع في الضوء الخافت.

واحتشد فيها عدد كبير من الناس حكمت عليهم جميعًا بنظرة عابرة أنهم كانوا في سعة من العيش. فقد ارتدت السيدات جميعًا القبعات وامتاز الرجال بحسن الهندام. وكان هناك قسيس يلوح بذراعيه من فو المنصة واعظًا الناس.. بينما وقف الجميع ينظرون نحوه وبدا لي أن هذا خير لنا فلن يلحظ أحد وجودنا. فهمست لزوجتي قائلاً: "أنحاول أن نتركه هنا"؟ فأومأت برأسها. فدخلنا معيدًا جانبيًا حيث كان الظلام دامسًا ولم يكن به أحد وقد تعذرت الرؤية. وغطت زوجتي وجه الطفل بطرف البطانية التي كان يندثر بها ثم وضعته على أحد المقاعد تمامًا كما يضع الإنسان حزمة ثقيلة ليطلق سراح يديه. ثم جثت على ركبتيها وصلت مدة طويلة وقد دفنت وجهها بين يديها

بينما لم أدر أنا ماذا أفعل فرحت أنظر إلى مئات القلوب الفضية من كل الأحجام التي كانت تكسو جدران المعبد.

وفي النهاية نهضت واقفة على قدميها، وقد ارتسم على وجهها ثبات العزم ثم سمت الصليب على صدرها وابتعدت في بطء شديد عن المعبد بينما كنت أنا أتبعها على مسافة قصيرة. وفي هذه اللحظة صاح الواعظ قائلاً: "ثم قال يسوع" إلى أين تذهب يا بطرس"؟ وقد أزعجني ذلك لأنه خيل إلي أن هذا السؤال كان موجهًا إلي أنا. ولكن زوجتي ما كادت ترفع الستار عند الباب حتى سمعنا صوتًا خلفنا فجفلنا له. قال الصوت: سيدتي لقد تركت هناك ربطة على المقعد "وكانت صاحبة الصوت امرأة متشحة بالسواد من تلك المخلوقات المتدينة التي تقضي أيامها بين الكنيسة وغرفة ملابس الكهنة. فقالت زوجتي: "آه نعم. شكرًا لك.. لقد نسيتها". فتناولنا الربطة مرة أخرى وغادرنا الكنيسة ونحن أقرب إلى الموت منا إلى الحياة.

وعندما خرجنا إلى الطريق قالت لي زوجتي: "لا يريد أحد أن يأخذ ولدي هذا الصغير المسكين". كانت أشبه ما تكون بشخص يريد أن يبيع سلعة ما وقد عول على إجراء صفقة سريعة ثم لم يجد أحدًا في السوق ليشتري منه سلعة. كانت في أثناء ذلك قد بدأت تركض من جديد بنفس الطريقة اللاهثة حتى بدت أنها لا تكاد تلمس الأرض بقدميها. وبلغنا ميدان سانتي أبو ستيلي.

وقد فتحت الكنيسة أبوابها. وما إن دلفنا إلى داخلها حتى همست زوجتي قائلة عندما رأت أنها كبيرة وفسيحة ومظلمة – "هذه هي بغيتنا

المنشودة". ثم اتجهت إلى أحد المعابد الجانبية يحدوها تصميم وعزم حيث وضعت الطفل على أحد المقاعد ثم أسرعت نحو المدخل وكأن الأرض كانت ملتهبة تحت قدميها دون أن ترسم الصليب على صدرها أو تؤدي الصلاة أو تقبل جبهة الطفل ولكنها ما كادت تخطو بضع خطوات حتى دوت الكنيسة كلها بصوت ولولة يائسة.

لقد حان موعد غدائه وكان في ذلك مواظبًا للغاية فراح يبكي لشعوره بالجوع. وربما فقدت زوجتي صوابها عند سماعها صوت هذا البكاء العنيف لأنها ركضت أولاً نحو الباب ثم استدارات وهي لا تزال تركض وجلست على أحد المقاعد دون أن تعي أين هي وأخذت الطفل بين ذراعيها ثم فتحت سترتها لتعطيه ثديها. ولكنها ما كادت تخرج ثديها الذي أمسك به طفلها في نهم كالذئب قابضًا عليه بكلتا يديه بعد أن توقف عن البكاء حتى أخذ صوت وقح يصيح فيها قائلاً: إنك لا تستطيعين أن تفعلي هذا في بيت الله.. هيا اخرجي.. اخرجي إلى الطريق.

كان هذا هو خادم الكنيسة وهو رجل ضئيل مسن تكسو ذقنه لحية بيضاء صغيرة، وكان صوته أكبر منه حجمًا. فقالت زوجتي وهي تنهض مغطية ثديها ورأس الطفل بقدر ما أمكنها. "ولكنك تعلم أن السيدة العذراء تبدو في الصور دائمًا "حاملة طفلها بين ذراعيها". فأجابها قائلاً: "أتريدين أن تقرني نفسك بالسيدة العذراء أيتها المرأة الجريئة الوقحة". وعلى أية حال فقد غادرنا هذه الكنيسة أيضًا وذهبنا لنجلس في حدائق "بياتزا" حيث أعطت زوجتي ثديها للطفل من جديد حتى شبع ثم استغرق في النوم مرة أخرى.

عندئذ أقبل المساء وكانت الكنائس تغلق أبوابها وقد عرانا التعب وتولتنا الحيرة وعدمن الحيلة في خير ما يمكن أن نفعله. وقد أشعرني باليأس تفكيري في كل ما مر بي لارتكب شيئًا لا ينبغي أن أفعله. فقلت لزوجتي: "أنصتي إلي الآن. إن الوقت قد تأخر بنا ولا أستطيع أن استمر في هذا. فعلينا أن نحزم أمرنا". فأجابته قائلة في شيء من المرارة: "ولكنه دمك ولحمك. أتريد أن تتركه هكذا في مكان غريب بنفس الطريقة التي يترك بها الناس طردًا صغيرًا من الأحشاء لتأكله القطط".

فقلت: "لا . ليس كذلك. ولكن ثمة أشياء معينة يجب أن تؤديها في الحال ودون أن تفكري فيها وإلا فإنك لن تستطيعي أداءها مطلقًا". فأجابتني قائلة: "حقيقة الأمر أنك تخشى أن أغير رأيي وأعود به إلى المنزل.. فأنتم أيها الرجال جميعًا جبناء". وأدركت في تلك اللحظة أنني لا يجب أن أعارضها فأجبتها قائلاً باعتدال: "لا تقلقي. إني أعرف شعورك.. ولكنك يجب أن تذكري أنه مهما حدث له فإنه أفضل من تنشئته في تومارانشيو في غرفة ليس بها مطبخ أو دورة مياه وينتشر فيها البق شتاء والذباب صيفًا". فلم تحر جوابًا.

ثم أخذنا طريقنا في شارع ناسيونال دون أن ندري أين كنا ذاهبين وسرنا فيه تجاه برج نيرون وعند أسفل هذا البرج بالضبط لاحظت طرقًا صغيرًا ضيقًا مقفرًا تمامًا ينحرف إلى أعلى من الطريق الذي كنا نسير فيه وقد وقفت به سيارة رمادية مقفلة أمام مدخل أحد منازله. وقلت لزوجتي: "أسرعي فهذه هي فرصتنا.. ضيعه على المقعد الخلفي". ففعلت كما قلت لها ووضعت الطفل في مؤخرة السيارة ثم أغلقت الباب. فعلنا كل هذا في لحظة واحدة

دون أن يرانا أحد. ثم أمسكت بها من ذراعها وأسرعت الخطى في اتجاه ميدان ديل كورينال.

وكان الميدان خاليًا من الناس يكاد يسبح في الظلام. ولم تكن به إلا بضعة مصابيح مضاءة في أسفل المباني الكبيرة. وكانت جميع أضواء روما تلمع في الظلام في أسفل فيما وراء السور. واتجهت زوجتي إلى النافورة الكائنة أسفل المسلة حيث جلست على أحد المقاعد وأجهشت فجأة بالبكاء كما لو كانت وحدها حانية قامتها ومديرة مظهرها نحوي. فقلت لها: ماذا دهاك الآن؟ قالت: الآن وقد تركته فأني أفتقده.. يبدو لي أن ينقصني شيء هنا حيث تعود أن يمسك بثدي". فقلت دون تفكير: "حسنًا. نعم بالطبع.. ولكنك ستتغلبين على هذا الشعور". فهزت كتفيها واستمرت في البكاء.

لكن فجأة جفت دموعها كما يجف المطر في الطريق عندما تهب الريح. وقفزت واقفة مرة أخرى وهي في نوبة غضب ثم قالت مشيرة إلى أحد المباني المطلة على الميدان: وأنا أمسك بيدها: "قفي. إنك لمعتوهة.. ألا تعلمين أن الملك لم يعد هناك". فقالت: "ماذا يعنيني هذا؟ فسأتكلم مع من حل محله. فلابد أن هناك شخصًا ما.

وفي الواقع فإنها كانت تركض نحو باب القصر الكبير وعلم الله ما الذي كان يمكن أن تفعله لو أنني لم أقل لها في يأس فجأة: "أنصتي إلي. لقد كنت أفكر في المر.. فلنعد إلى هذه السيارة ونخرج الطفل مرة أخرى. أعني فلنحتفظ به نحن أنفسنا. فإننا قبل كل شيء إن زدنا واحدًا أو نقصنا واحدًا..." وفي الحال حال اقتراحي هذا الذي كان هو في الحقيقة عقدة

الموضوع كله محل فكرة مخاطبة الملك. فقالت وهي تنطلق في سرعة تجاه الشارع الصغير الذي كانت تقف فيه السيارة الرمادية ولكن هل لا يزال هناك"؟ فأجبتها قائلاً: "بالطبع فلم تمض بعد خمس دقائق..".

وفي الواقع فإن السيارة كانت لا تزال هناك. ولكن زوجتي ما كادت تهم بفتح الباب حتى ظهر في مدخل الدار رجل قصير القامة في منتصف العمر يبدو عليه مظهر السلطة والنفوذ وصاح قائلاً: "قفي. قفي!.. ماذا تفعلين بسيارتي"؟ فأجابته زوجتي دون أن تستدير نحوه وهي تنحني لتلتقط ربطتها من فوق المقعد قائلة: "أريد ما يخصني". ولكن الرجل كان ملحًا فسألها قائلاً: "وما الذي يخصك هناك"؟ هذه سيارتي.. أتفهمين؟ إنها لي". كان يجب أن تروا زوجتي تلك اللحظة. فإنها اعتدلت واقفة واتجهت نحوه. ثم صاحت قائلة: "من ذا الذي يأخذ شيئًا منك؟ لا حاجة بك إلى القلق فنحن لا نأخذ شيئًا يخصك.. أما عن سيارتك فإني أبصق عليها.. انظر"! وفي الواقع فإنها بصقت فعلاً على بابها. فقال الآخر مذهولاً: "ولكن هذا الطرد.."؟ فردت قائلة: "هذا ليس طردًا. إنه طفلي.. فلتنتظر إن شئت"!

ثم كشفت عن وجه الطفل وأرته إياه وهي تردف قائلة: "ليس في إمكانك أنت وزوجتك أن تمتلكا طفلاً جميلاً كهذا – حتى ولو ولدتما من جديد– ولا تحاول أن تلمسني بيديك وإلا فسأصيح في طلب الشرطة وأقول لهم أنك تحاول أن تسرق طفلي". وفي الواقع فإنها أطلقت من التهديد والتأنيب مما جعل الرجل المسكين يوشك أن يسقط في إغماءة وهو واقف هنا أحمر الوجه فاغرًا فاه. وفي النهاية سارت بعيدًا على مهل ولحقت بي عند ناصية الطريق .

المحجب

لقد ألحق بي ألساندرو الخزي والعار في أحد المطاعم. وحدث بعض مضي أسبوعين أن اصطدم بإحدى سيارات النقل وهو راكب دراجته البخارية في شارع كاسيا ولقي حتفه على التو. كما اعتدى على جويليو بالضرب أثناء خروجنا من السينما ولم تكد تمضي ثلاثة أيام بعد ذلك حتى أصيب بذلك الداء الرهيب الذي ينبعث من المصارف وذلك في المكان المخصص للسباحة في نهر التيبر وأسلم الروح بعد بضع ساعات.

وحدث أن قال لي ريمو في شارع ريبتا "أيها الأحمق اللعين. أيها المعتوه. أيها الأبله". وما لبث بعد ذلك أن زلت قدمه أثنا انحرافه في شارع ديلوكا على قطعة من قشر البرتقال فكسرت ساقه. وحدث أن أشار لي ماريو إشارة وقحة أثناء مشاهدة إحدى مباريات كرة القدم ويمكنني أن أقول أن ما لبث أن لاحظ في الحال سرقة نقوده هذه الحالات الأربع – فضلاً عن حالات أخرى اذكرها خشية الآمال – قد أقنعتني في تلك السنة بأنني كنت في حماية قوى غامضة تنزل الموت أو العقاب على أية حال بكل من يعاديني.

وأرجو أن تلاحظوا إن ذلك لم يكن يرجع إلى وجود عين شر. فمن يملك عينا شر يلحق الأذى بالناس بغير ما باعث ولغير ما غرض بل يوزع الكوارث هنا وهناك كما توزع الرشاشة الماء: دون منطق أو عقل. كلا – بل إنني كنت أحس على الرغم من تفاهة شأني فلم أكن وسيمًا ولا قويًا ولا غنيًا "فأنا أعمل بائعًا في محل لبيع الأقمشة" كما أنني لا أتمتع بموهبة ما على

صورة خاصة – كنت أحس إنني في حماية قوة خارقة للطبيعة لا يستطيع بسببها أحد أن يؤذيني دون أن ينزل به العقاب. ستقولون إن هذه جرأة ووقاحة.

حسنًا .. إن كان الأمر كذلك فأرجو أن تفسروا لي كيف حدثت جميع تلك المصائب والنوازل لكل من رغب في السيطرة علي. فسروا لي لماذا كانت تستجيب لي هذه القوة نفسها في الحال كالجرو الصغير.. فكلما وجدت نفسي في ورطة ما ودعوتها لنجدتي هرعت لإغاثتي وإنزال العقاب بذلك الحمق الطائش الذي تجاسر على معاداتي. فسروا لي في النهاية.. ولكن لا عليكم. إن كل ما يجب عليكم أن تعرفوه هو اقتناعي وقتذاك. بأنني أتقمص حياة مسحورة كما لو كان ذلك بفعل قوة سحرية.

لقد عقدنا النية أنا وجرازيا في أحد أيام الصيف على الذهاب إلى أوستيا وقضاء يوم الأحد هناك. فقد كان يعمل في محل الأقمشة ثلاثة من الباعة: جرازيا وأنا وبائع جديد يدعى أوجو. وأصدقكم القول، إنني لم أكن أميل مطلقًا إلى هذا الأخير.

فقد كان طويل القامة رياضي الجسم معتزًا بنفسه ذا وجه كوجه الملاكم فقد كان أنفه مكسورًا وفكه بارزًا. وكانت لأوجو طريقته الخاصة في إلقاء القماش على منضدة العرض وبسطه وتناول بين أصبعيه بطريقة خاطفة مصوبًا نظره لا إلى العميل بل إلى المارة في الطريق من خلال الباب الزجاجي للمحل مما كان يثير أعصابي حقًا. وعندما كان يعبر المشتري عن شيء من الشك فإنه كان يستخدم أسلوبه العنيف بدلاً من إقناعه – أي أنه كان يلوذ

بالصمت في احتقار واستنكار أو يقول له مباشرة في لهجة جافة: "إن ما تريده هو شيء عادي مألوف". ثم يذهب ويعيد القماش إلى مكانه فوق الرف.

وكان يهدف في الواقع إلى بث الخوف في قلب المشتري الذي كان في معظم الأحيان يدعوه مرة أخرى في ندم ويعيد فحص القماش ثم يشتريه. ولكنني كلما حاولت تقليده كان الناس ينعون على سوء سلوكي ويقولون أن مدير المحل يحسن عملاً بطردي وأشياء أخرى من هذا القبيل وربما كان ذلك لأنه لم يكن لي ما لأوجو من كيان جسماني وسلاطة لسان. وهكذا فإنني بعد أن بذلت بضع محاولات فاشلة عدت مرة أخرى إلى طريقتي الخاصة التي تتميز بالنعومة والذلة ومعسول القول الذي يفيض لمزًا وإيعازًا وبشاشة وملاطفة.

كما أن جرازيا لم تكن تحب أوجو أو هكذا أكدت لي على الأقل عدة مرات قائلة: "هذا الرجل!.. يا إلهي! إنه بغيض شنيع. فهو يبدو كالزنوج". ومع ذلك فإنه عندما جاء إلينا وسألنا بلهجته المتعجرفة المعهودة وذلك بعد أن اتخذنا الترتيبات للذهاب إلى أوستيا قائلاً: "حسنًا ما خطتكم الجميلة لقضاء يوم الأحد"؟ إذا بها تبتسم وتنتفخ أوداجها دلالاً وتجيبه قائلة في الحال: "لم لا تأتي أنت أيضًا يا أجو"؟ وفي وسعكم أن تتخيلوا أوجو فإنه قبل على التوبل بلغ به الأمر أن قال متخذًا مظهر من يرعى شئوننا أنه سيعمل على إحضار فتاة أخرى معه حتى تكون هناك فتاة لكل منا. ولكنه قال ذلك بطريقة معينة جعلتني في شك من أمره وكأنه يعني حقًا أن فتاته هي جرازيا وإنه سيحضر الأخرى من أجلي.

وفي يوم الأحد التقينا جميعًا في الموعد المتفق عليه عند محطة سان باولو حيث كان الزحام على أشده على صورة لا يمكن تصديقها وقد بدت جرازيا لأول مرة في ثوب جديد أزرق هادئ كان يتفق تمامًا مع شعرها الأشقر. وكنت أنا محملاً بالطرود فقد قمت بشراء ما يلزمنا من زاد للغذاء. وكان أوجو متأنقًا في ملبسه فقد كان يرتدي حلة رمادية جميلة يميل لونها إلى الخضرة. كما كانت هناك أيضًا فتاة أوجو وتدعى كليمنتينا.

وما لبث أن تأكدت لدى الشبهات التي راودتني في المحل عندما أمسك أوجو بذراع جرازيا وقال يخاطبني أنا وكليمنتينا بطريقة حازمة: "والآن حذار أن تتسلا بعيدًا.. واحرصا على أن تكونا على مرأى منا عندما يحين وقت الرحيل".

فضحكت جرازيا وانزوت مبتهجة في أحضانه ونظرت إلى كليمنتينا التي كانت في الواقع هي الفتاة الملائمة لي تمامًا — أي بالطبع طبقًا للفكرة التي كونها أوجو عن شخصيتي — كانت فتاة طيبة بيضاء ممتلئة لها صدر وردفان كصدور البقر وأدباره كما كان وجهها الغبي يشبه وجه البقرة أيضًا. ولم ينقصها سوى ناقوس صغير يعلق حول عنقها. قالت لي مبتسمة وهي تنظر إلى أوجو وجرازيا: "ألا ترى هذا الثنائي، وكم يهوي أحدهما الآخر. وربما كانت تعني بذلك دعوتي لتحذو حذوهما ولكني بدلاً من الاستجابة لها أجبتها في مرارة وأنا ابتعد عنها: "آه حقًا؟ لا تقولي هذا.. فأنا لم ألحظ ذلك قط".

وجاء القطار وكان أوجو بالطبع هو أول الراكبين ولا يعلم إلا الله كيف فعل هذا وسط ذلك الزحام الصاخب المتدافع. كما كان أول من ظهر عند النافذة يوجهه البغيض وهو يصيح قائلاً: هناك أربعة أماكن.. وفي وسعكم

الآن أن تركبوا على مهل. فركبنا القطار. وجلسنا في مقعدين متقابلين كل اثنين منا في مقعد ثم تحرك القطار.

ولا أكون مبالغًا حين أقول إنني خلال الرحلة كلها لم أرفع بصري قط لحظة واحدة عن الاثنين الآخرين. فلم يسعني إلا أن أفعل ذلك وكان أوجو وقتئذ قد استحوذ على جرازيا تمامًا. فكان يرى تارة وهو يتحدث إليها همسًا فيجعلها تضحك ويحمر وجهها خجلاً وتارة أخرى وهو يعانقها كما لو كان على سبيل المزاح وحينًا وهو يربت عليها ويدغدغها متظاهرًا بأنه لا يفعل شيئًا مطلقًا بينما لا تبدي جرازيا اعتراضًا شأن امرأة لا تعرف الحياء حقًّا. بل لم تزد على أن تحتك به وتتلوى كالحية وقد ساءني أكثر من أي شيء آخر سلوكهما على هذه الصورة متجاهلين كلية. ليتني استطعت أرد لهما هذا وذلك بأن أحذو حذوهما مع كليمنتينا فضلاً عن أنها لم تجذبني إليها فإنها لم تبد راغبة في مغازلتي. فقد استغرقت في النوم وألقت برأسها إلى الخلف وفغرت فاها ووضعت يديها في حجرها.

وعند وصولنا إلى أوستيا ذهبنا إلى مبنى الاستحمام وخلع كل منا بدوره ملابسه في إحدى الكبائن. وما إن أصبحنا نحن الأربعة في ثياب الاستحمام حتى تجسمت الفروق بيننا وأصبحت أكثر وضوحًا للعيان. فقد كانت جرازيا ذات قوام جميل نحيل وساقين طويلتين قويتين وصدر تام النضوج. وكانت كليمنتينا من الناحية الأخرى تبدو كوسادة محزومة من الوسط. فكان جسمها بأكمله يتألف من ردفين وصدر بلا خصر أو عنق.

كان التناقض بيني وبين أوجو أكثر وضوحًا. فقد كان جسمه قويًا ثابتًا

اسمر عريض المنكبين ضامر العجز، كأجسام المصارعين. وبدا لباس الاستحمام ملتصقًا بعجزه بينما راحت ترتجف فخذاه المكسوتان بالشعر الأسود. في حين أنني كنت من الناحية الأخرى ضئيلاً ذل ساقين نحيلتين وجسم خال من العضلات وذراعين هزيلتين فكنت أشبه بعنكبوت حقيقي. وما لبث أوجو بالطبع أن لأمسك بيد جرازيا وانطلقا يركضان عبر الرمال الملتهبة تجاه البحر حيث غاصا في الماء برأسيهما. وقالت كليمنتينا التي بدت أن تفعل كل ما في وسعها لتكدير صفوي وإغاظتي "ما أجمل هذا الثنائي"! وعندئذ بدا الاثنان في عرض البحر وهما يتراشقان برذاذ الماء ويتجاذبان ويتدافعان. ثم رفع أوجو جرازيا بين ذراعيه فتشبثت جرازيا بعنقه وانطلقت تضحك.

وسألت كليمنتينا عما إذا كانت ترغب في الاستحمام فأجابتني بالإيجاب قائلة: "طبعًا. بكل سرور" ولكنها أحبت أن تبقى بالقرب من الشاطئ لأنها لم تكن تستطيع السباحة. وهكذا أخذنا حمامنا في مياه دافئة قذرة يبلغ عمقها قدمين ومن حولنا الأطفال يصيحون ويصرخون ويتقاذفون بالكرات بينما راحت تدعوهم مربياتهم وأمهاتهم بأسمائهم وظل الراديو في مبنى الاستحمام يدوي بلا انقطاع منشدًا الأغاني القديمة الجميلة وفي أثناء ذلك كان أوجو وجرازيا سبحان بعيدًا في البحر كرياضيين حقيقيين وكانا يختفيان عن الأنظار.

وفي تلك اللحظة خطر لي فجأة ودون سابق إنذار وبطريقة طبيعية تمامًا أن أوجو سيموت غريقًا في ذلك اليوم. لقد فكرت في هذا بطريقة سلبية للغاية كجزاء عادل لا مفر منه. لقد ظلمني فلابد أن يموت. فأعاد إلى هذا الخاطر فجأة الهدوء والطمأنينة وذهبت إلى كليمنتينا التي كانت تقف في الماء متشبثة

بحبل الأمان بكلتا يديها وقلت لها: "إن أوجو من أولئك الذين يستعرضون مهارتهم ثم يصابون بتصلب في العضل ويغرقون.. ثم ينقلون إلى الشاطئ فاقدي الوعي ويجري لهم تنفس صناعي". فنظرت إلى دون أن تفهم ما أعنيه وقالت: "ولكنه بلا شك سباح ماهر للغاية"؟ فأجبتها قائلاً وأنا أهز رأسي:

– إنه سباح ماهر, أنا لا أنكر هذا.. ولكنه من الصنف الذي تنتهي به نزهة يوم الأحد وهو راقد على الرمل بينما يقوم آخر بإجراء التنفس الصناعي له. أتفهمين كلامي؟

وبعد قليل خرج أوجو وجرازيا من الماء وأخذا يركضان هنا وهناك على الشاطئ ليجففا جسديهما على حد قولهما. أخذ يطارد كل منهم الآخر ثم يتماسكان وفد فتح منهما ذراعيه ويتقاذفان بكرات رملية صغيرة ثم يسقطان سويًا على الأرض. رحت أحملق فيهما بنظرات ثابتة وأنا واقف بجانب كليمنتينا التي ما زالت متشبثة بالحبل وخيل إلي أنني أرى أوجو وهو يقذف بنفسه في البحر حيث يصاب بالتصلب العضلي فيحرك ذراعيه في جنون ثم يغرق.

وبعد ذلك نقل إلى البر حيث يجري له التنفس الصناعي. لم أكن على يقين من أنه سيموت ومع ذلك فلم يكن يؤسفني أن يتأرجح كما يقولون لمدة ساعة على الأقل بين الموت والحياة. وفي تلك الأثناء كان أوجو وجرازيا قد فرغا من تجفيف جسديهما ثم جاء أوجو واقترح أن نخرج في نزهة بالقارب. فأعلنت كليمنتينا في الحال إنها لن تذهب لأنها لا تعرف السباحة. فركب ثلاثتنا القارب وقد أمسكت أنا بالمجدافين بينما جلس أوجو وجرازيا جنبًا إلى جنب في مؤخر القارب.

وبدأت أجدف في هدوء على صفحة البحر الهادئ الممل وتحت الشمس المحرقة بينما ظلت عيناي مثبتتين عليهما طيلة الوقت وكأني أرجو أن تخجلهما نظراتي المسمومة مما يفعلان. ويدفعهما إلى قليل من الاحتشام.. ولكن جهودي ذهبت سدي فقد ظل يحتك كل منهما بالآخر يتمازحان كما لو كانت بحارًا مأجورًا.. وفي الواقع فإن أوجو رغبة منه في تأكيد الموقف قال لي بلهجة هزلية: "أرجو أيها البحار الطيب أن تجذف بيسرك لو سمحت، وإلا اصطدمنا بهذا الطوق". عندئذ نفد صبري وأجبته قائلاً:

– أوجو.. ألم يقل لك أحد قط كم أنت جلف فظ!؟

فاعتدل في جلسته وسألني قائلاً:

ما – أ– أ – ذا؟ وهو يمد الألف وكأنه يقول: ماذا أسمع؟ هل صح ما أسمعه؟ فأردفت قائلا: وأنا ما أزال أجدف:

– نعم إنك جلف وأبله.. ألم يقل لك ذلك أحد قط؟

فسألني قائلاً وهو يرفع صوته:

– ماذا دهاك؟...

فقلت في فتور:

– إن ما دهاني هو أنك وغد من الطراز الأول...

فقال:

– حذار مما تقول.. فقلت: "إني أقول ما اعتقده وهو أنك وغد سافل ووحش قاس.. فقال: "حذار الآن.. لا تحاول أن تكون شاذًا معي".

ثم نهض واقفًا على قدميه وضربني بقوة في أعلى صدري. فتركت المجدافين ووثبت واقفًا على قدمي أنا أيضًا وهممت بأن أرد له ضربته ولكنه كان أسرع مني فقبض على رسغي بأصبعين خيل إلي أنهما من الصلب. عندئذ اشتبكنا في عراك وقد وقف كلانا في القارب بينما راحت جرازيا التي كانت لا تزال جالسة تصرخ وتتوسل إلينا أن نكف عن ذلك. وما أن صدرت منا حركة عنيفة حتى انقلب القارب الذي كان خفيضًا ضيقًا وسقطنا جميعًا في الماء.

لم نكن على مسافة بعيدة من الشاطئ وأقسم أنني وأنا أسقط في الماء حدثت نفسي قائلاً في رضا: _ "إنه الآن سيصاب بالتصلب العضلي ويغرق.. ثم يموت كما مات الساندرو وجوليو".

وفي أثناء ذلك كان القارب يندفع بعيدًا مع التيار وقد انقلب رأسًا على عقب وطفًا المجدافان فوق سطح الماء. وسبحنا ثلاثيتنا بعيدًا عنه. وصاح في أوجو قائلاً: "أيها الأبله"! بينما كانت جرازيا تسبح في اتجاه الشاطئ وكأن شيئًا لم يحدث. فأجبته قائلاً: "أنت أبله ومنافق أيضًا".

عندئذ دخل فمي قليل من الماء وأنا أقول هذا. ولكن أوجو في هذه اللحظة لم يعد يعيرني انتباهًا. فقد كان يسبح بعيدًا ليلحق بجرازيا. وأخذت أنا أيضًا أسبح تجاه الشاطئ وأنا أفكر طيلة الوقت في التصلب العضلي الذي سيجذبه إلى قاع البحر عندما فوجئت بألم حاد في جنبي الأيمن بأكمله ابتداء من كتفي حتى قدمي وأدركت أن التصلب العضلي قد هاجمني أنا لا أوجو.

حدث كل هذا لحظة فقدت فيها وعيي. ولم يتوقف الألم وبدأت أحرك ذراعي في جنون حتى عجزت عن التنفس وتولاني شعور مخيف بالرعب فأطلقت صيحة ودخل الماء في فمي.. صحت قائلاً: "النجدة"! ثم ابتلعت مزيدًا من الماء. واستمر التصلب العضلي طيلة الوقت فغصت في الماء ثم صعدت مرة أخرى وصحت قائلاً: "النجدة"! وغصت من جديد وأنا أبتلع الماء طوال الوقت. وخلاصة القول إنني كنت على وشك الغرق لولا أن يدًا أمسكت بذراعي في النهاية بينما قال لي صوت أوجو اهدأ وسأحملك إلى الشاطئ. فأغمضت يعيني وأعتقد أنه قد أغمى علي..

وعندما أفقت بعد فترة من الزمن لا أدري كم طالت شعرت برمال الشاطئ المحرقة تحت ظهري وأحسست بشخص يقبض على رسغي وهو برفع ذراعي ويخفضهما بينما جلس آخر القرفصاء إلى جانبي وراح يدلك لي صدري ومعدتي. وقد انتشرت في الهواء سحابة كبيرة من الغبار. وكان ضوء الشمس يبهر الأبصار وقد أحاطت بي من كل جهة غاية من السيقان الشعراء التي لفحتها الشمس. أخذ أصحابها يراقبونني وأنا أعالج سكرات الموت. وسمعت شخصًا يقول: يبدو أنه قد قضى" وقال شص آخر: "هم يريدون أن يستعرضوا أنفسهم. وهذا هو ما يحدث. فهم يعرقون أنفسهم".

أحسست أنني منتفخ بالماء وإنني لا أستطيع أن أحمل رأسي لثقله وكانت ذراعي في تلك الأثناء ترتفعان وتنخفضان كمقبضي منفاخ ثم اجتاحني غضب شديد وقلت محاولاً أن أخلص نفسي: "دعوني وشأني.. ولتذهبوا إلى الجحيم". ثم أغمى علي مرة أخرى.

أنا لا أريد أن أزيد على هذا في وصف ذلك اليوم المشئوم. ولكن جرازيا قالت لي بعد مضي أسبوع أثناء وجودنا في المحل في لحظة كان فيها أوجو بعيدًا عنا مخفضة صوتها – "أتعرف لماذا حدث أنك أوشكت على الغرق في أوستيا يوم الأحد الماضي"؟ فقلت" "لا. لماذا حدث هذا"؟ فقالت: "لقد فسر لي أوجو ذلك.. إنه يزعم أن ثمة قوة غامضة تحميه. وإن كل ما يعاديه قد يهلك.. حسنًا أنه يزعم أنه محجب.. ولكنني أود لو عرفت معنى كلمة "محجب".

فأجبتها بعد لحظات من التردد قائلاً: "محجب" معناها: أن يكون شيء ما أو شخص مقدسًا".

ولم تقل شيئًا لأن أوجو كان قد عاد في تلك اللحظة حاملاً لفافة من القماش القطني بسطه بأصبعه بطريقته الخاطفة المعهودة وهو يقول في نفس الوقت:

– "وهذا هو ما تطلبينه يا سيدتي". ولكنني أدركت من نظرات جرازيا أنها كانت مغرمة. حقًا. يا إلهي: فهو ليس قط شابًا وسيمًا قويًا بل أيضًا محجبًا!

أنا لا أقول لا

تتملكني الرغبة في أن أحكى لكم ما حدث ليلة زفافنا لكي أجعلكم تفهمون شخصية آديل: "السماء حمراء في الصباح.." كما يقولون فإننا بعد أن تناولنا العشاء في أحد المطاعم في "تراستيفير" وتبادلنا الأنخاب وقصائد الشعر والتمنيات الطيبة والعناق والدموع من جانب حماتي ذهبنا إلى منزلي الخاص الذي يقوم فوق محل أبيع فيه الأدوات الحديدية في شارع ديلانيما.

عندئذ كنا قد تزوجنا وكان كلانا يشعر بشيء من الخجل. وعندما دخلنا غرفة النوم بدأت أنا أخلع سترتي ثم قلت وأنا أعلقها على ظهر المقعد لاستهل الحديث: "يقولون أن ذلك يجلب الحظ.. هل لاحظت؟ – كان الجالسون إلى المائدة يبلغ عددهم ثلاثة عشر شخصًا" وكان آديل قد خلعت حذائها الجديد الذي يؤلم قدميها ووقفت أمام مرآة الصوان تحملق في صورتها فأجابت في الحال بطريقة راضية وكأن ما قلته قد خلصها تمامًا من خجلها قائلة: " لا. حقًا يا جينو بل كانوا اثني عشر.. فبالإضافة إلينا نحن الاثنين كان هناك عشرة ضيوف – فيكون المجموع اثني عشر. "

ولكني كنت قد أحصيت الحاضرين في المطعم – وذلك لكي أتحاشى الخطأ أيضًا فيما أصدره للخدم من أوامر. فوجدت فعلاً إننا كنا ثلاث عشر شخصًا حتى إنني قلت للودوفيكو أحد شهود العرس: "إننا ثلاثة عشر شخصًا.. فآمل ألا يجلب لنا هذا سوء الحظ". فأجابني قائلاً: كلا مطلقًا. بل إنه في الواقع يجلب حسن الحظ. فجلست على حافة الفراش وبدأت

أخلع سراويلي وأنا أجيبها في هدوء قائلاً في نفس الوقت: أنت مخطئة.. فقد كنا ثلاثة عشر.. ولقد لاحظت هذا الأمر بالذات وأوضحته للودوفيكو أيضًا.

ولم تجبني آديل في تلك اللحظة لأنها كانت تخلع ثوبها الذي غطى رأسها ونصف جسدها. ولكنها ما أن تخلصت منه حتى قالت مسرعة دون أن تعطي نفسها الفرصة لالتقاط أنفاسها: "إنك أخطأت في حساب العدد.. فقد كنا ثلاثة عشر ونحن في الطريق – ولكننا بعد انصراف "ميو" صرنا اثني عشر فقط". كنت عندئذ في مئزري ولست أدري لماذا تولاني الغضب فجأة فصحت قائلاً: "اذهبي أنت والاثنا عشر. وما صلة ميو بهؤلاء؟.. أقول لك أنني أحصيت الجماعة كلها في المطعم".

فقالت وهي تضع ثوبها في الصوان: "حسنًا إذن فمعنى هذا إنك عندما أحصيتهم كنت قد أفرطت قليلاً في الشراب.. هذا هو كل ما هنالك". فقلت: "ماذا تعنين – أفرطت في الشراب؟.. أعتقد أنني تناولت قدحين في المجموع بما في ذلك السبومانت فقالت: "على أية حال فإن عددنا كان اثني عشر شخصًا.. وأنت لا تذكر هذا لأنك مخمور الآن وذاكرتك تخونك". فقلت: "من المخمور؟ – ماذا تعنين؟.. لقد كنا ثلاثة عشر". فقالت: "أقول لك أننا كنا اثني عشر". "ثلاثة عشر". وكنا وقتئذ نقف وجهًا لوجه في وسط الغرفة أنا في مئزري وهي في شعارها. فأمسكت بذراعيها وصحت في وجهها قائلاً: "ثلاثة عشر". ولكنني عندئذ غيرت رأيي فجأة وتمتمت قائلاً وأنا أحاول أن أعانقها "ثلاثة عشر أو اثنا عشر – هذا لا يهم.. أعطني قبلة".

ولكنها ماكادت تسقط على الفراش دون أن ترفض تقبيلي حتى همست قائلة تمامًا بين شفتي وهما يلتقيان بشفتيها: "نعم. ولكنناكنا اثني عشر شخصًا". فوثبت بعيدًا عنها إلى وسط الغرفة وصحت قائلة: "هذه بداية سيئة.. أنت زوجتي وعليك طاعتي.. فإن قلت لك إنناكنا ثلاثة عشر شخصًا فمعنى هذا إنناكنا ثلاثة عشر وليس لك أن تعارضيني". فنهضت عن الفراش وصاحت قائلة: "إني زوجتك – أو بالأحرى هكذا سأكون.. ولكنناكنت اثني عشر شخصًا" فقلت: "خذي إذن هذه.. وقدكنا ثلاثة عشر".

وهكذا أعطيتها الصفعة الأولى وكانت صفعة مدوية. وبدت آديل مذهولة مدة لحظة. ثم ركضت تجاه باب غرفة الجلوس وفتحته وهي تصيح عند عتبته قائلة: "لقدكنا اثني عشر شخصًا.. ولتدعني وشأني.. فأنت تنفرني". ثم اختفت وما لبثت أن أفقت بعدما تولتني الدهشة لحظة ثم اتجهت إلى الباب حيث ناديت وطرقت وتوسلت: ولكنني لم أسمع صوتًا. وانتهى بي الأمر إن قضيت ليلة زفافي جالسًا في فراشي وحيدًا أغلب النعاس ومرتديًا نصف ملابسي.

وأعتقد إنها حذت حذوي على الأريكة في غرفة الجلوس. وفي اليوم التالي ذهبنا لرؤية أمها بعد أن اتفقنا على ذلك وسألناها عن عدد الحاضرين في الحفل. واتضح إنه كان هناك في الحقيقة أربعة عشر شخصًا وذلك بسبب وجود غلامين صغيرين للغاية كان ينزلقان على مقعديهما ويلعبان تحت المائدة. وعندما أحصيت أنا الحاضرين كان أحد الغلامين لا يزال جالسًا إلى المائدة. بينما اختفى كلاهما عندما أحصتهم آديل. وهكذا كان كلانا على حق. ولكن آديل كزوجة كانت مخطئة.

ثم مرت بعد ذلك مناسبات لا حصر لها كشفت فيه آديل عن هذا الجانب المتزمت من شخصيتها. فقد كانت مصابة بجنون الجدل حول كل تافه من الأمور فإن قلت أبيض قالت أسود ولا تسلم أبدًا بل لا تقر مطلقًا بأنها مخطئة ولو بدأت في وصف هذه المناسبات فلن أفرغ منها -كما حدث مثلاً عندما أصرت يومًا كاملاً على أنها لم تتسلم قط نفقات المنزل وبعد أن ظلت في جدال متصل حول هذا الموضوع مدة أربعة وعشرين ساعة متتالية وجدت النقود على قاعدة النافذة الصغيرة في دورة المياه وهي تتنسم الهواء الطلق كوردة في قدح.

ومع ذلك فقد استمرت المناقشة بالطبع لأنها أصرت على أنني أنا الذي وضعت النقود على قاعدة النافذة. بينما أثبت لها بأدلة من الواقع أن هذا كان ضربًا من المحال وإنها هي نفسها في الحقيقة قد ذهبت إلى ذلك المكان الصغير المعتم بعد أن أخذت النقود لا قبل ذلك. أو كما حدث مرة أخرى عندما أصرت بعنادها المعهود على أن الساندرو الذي كان يعمل ساقيًا في المقهى المقابل لنا كان له أربعة أطفال في حين إنني كنت أعلم علم اليقين أن له ثلاثة أطفال فقط. وهكذا استمر الجدل بيننا أسبوعًا كاملاً لأن الساقي كان في أجازة من عمله. وعندما عاد اكتشفنا أن أطفاله كانوا ثلاثة عندما بدأت المناقشة ثم صاروا أربعة لأنه أنجب طفلاً في تلك الأثناء.

كل هذا كان لغوًا فارغًا بالطبع، وكما يحدث دائمًا في مثل هذه الأمور كان الحق في جانبي بعض الأحيان وفي جانبها أحيانًا أخرى. ولكنني حاولت عبثًا أن أقنعها بأن وجود الحق في جانبها غير ذي أهمية ولكن حبها للجدل حول كل تافه من الأمور كان رذيلة فيها سوف تؤدي بنا إلى التهلكة. وكانت

تجيبني قائلة: "أنت لا تريد زوجة بل تريد جارية". وهكذا توترت العلاقات بيننا بسبب ذلك الجدل المتواصل. فكنت لا أكاد أقول شيئًا حتى ولو كان من ذلك النوع الذي لا سبيل إلى الشك فيه كقولي مثلاً: "أنه يوم مشمس" حق أشعر بالغضب يتولاني لمجرد تفكيري في أنها قد تعارضني. وانظر إليها فإذا بها في الواقع ودون أدنى شك تقول بغير تردد "لا يا جينو. إن الشمس محتجبة اليوم.. والسماء ملبدة بالغيوم". فأتناول قبعتي واندفع إلى خارج المنزل خشية أن انفجر من الغضب إن أنا مكثت أكثر من ذلك.

وذات يوم قرابة ذلك الوقت بينما كنت سائرًا في شارع ريبيتا قابلت جوليا تلك الفتاة التي كنت أغازلها قبل تعرفي بآديل بفترة وجيزة. وما لبثت وقتذاك أن مللت صحبتها لأنها لم تبد لي مستقلة الرأي وكانت توافقني على كل ما أقوله ولم تكن تخطئني في شيء.. ولكنني بعد أن تزوجت امرأة مستقلة الرأي وأصبحت أتمتع بكل مزاياها ندمت على جوليا التي كانت غاية في الرقة والمسالمة ولو كان في مقدوري لركلت لا يثاري آديل عليها. ولشد ما سرني أن ألقاها في ذلك الصباح لا لشيء إلا للفارق بين شخصيتها وشخصية آيل. ولذلك فإنني رغم محاولتها للتخلص مني بقولها إنها يجب أن تذهب إلى السوق لا تبيع حاجياتها ظللت أحدثها لا تمتع فقط بموافقتها إياي في كل شيء وباحتفاظها مع ذلك برقتها وبعدم معارضتها لي مطلقًا.

وقد قلت لها وفي نيتي إلى حد ما أن أختبرها "حسنًا" وهل أنت آسفة لما لقيته على يديك من معاملة سيئة للغاية وهل تحققت من أنني أفضل كثيرًا من غيري من الرجال؟ لم لم ترغبي في الزواج بي؟ وكنت أعلم تمامًا أن ذلك لا صحة له. فقد كنت أنا الذي هجرها. وكانت حجتي في ذلك بالضبط هي

أنني لم أكن أميل إلى من كانت على شاكلتها من النساء اللائي يغالين في الانقياد للرجل. ولكنني أردت أن أرى ماذا يكون جوابها على هذا الاتهام الزائف المجحف للغاية. وما أن سمعتني تلك الفتاة المسكينة وأنا أتكلم على هذه الصورة حتى فتحت عينيها على سعتهما لدهشتها.

ولا شك أنها ترددت لحظة في أن تجيبني قائلة: إنني أنا الذي أساء معاملتها – وهذه هي الحقيقة – وأنني أنا الذي هجرها. ولكنها بدلاً من ذلك فإن شخصيتها كشفت عن نفسها. فقالت بصوتها الرقيق: جينو.. لابد أن سوء تفاهم قد حدث بيننا.. إذ إنني ما كنت لأهجرك أبدًا، أبدًا.. فلشد ما كنت مشغوفة بك. وتلاحظون أنها لم تتهمني بالافتراء كما كانت تفعل آديل دون شك. كانت تحاول أن تتبرأ نفسها ولكنها إرضاء لي اعترفت بأنها ربما كانت ملومة إلى حد ما.

فأطلقت حكة مريرة عندما جال بخاطري ما اقترفته من حماقة بإيثاري آديل عليها. ثم ربت على وجنتها قائلاً إني أعلم أن اللوم يقع على وحدي.. فللأسف لم يكن هناك سوء تفاهم وقد كنت أنا وحدي الملوم.. فقد قلت ذلك دون أن أعنيه حقًا.. لأرى كيف تكون إجابتك. ثم ربت على وجنتها مرة أخرى فعلت وجهها حمرة السرور ثم ولت بعيدًا. ولكنني قبل أن انحرف عند ناصية الطريق نظرت حولي فوجدتها لا تزال واقفة على الإفريز وقد تدلت من ذراعها حقيبة المشتريات وهي تحملق نحوي في حيرة وذهول.

كنا في نهاية شهر مايو وفي اليوم التالي ذهبت أنا وأديل على دراجتي البخارية إلى فريجين لنأخذ أول حمام لنا – فوجدنا الشاطئ مقفرًا من الناس.

وكانت السماء زرقاء والشمس تبهر الأبصار ولكن ريحًا قوية كانت تهب في مستوى الأرض. كانت ريحًا لافحة محملة بالرمال. وكان البحر بالقرب من الشاطئ زاخرًا بالأمواج، والأمواج الخضراء والبيضاء التي تعلو إحداها الأخرى ويصطدم بعضها بالبعض.

أما في داخل البحر فكانت تعتور صفحة الماء خطوط زرقاء متعرجة كان يحيل لونها إلى السواد وقد رقطتها هنا وهناك قمم بيضاء. قالت آديل إنها تريد أن تخرج للنزهة في القارب. ورغم أن البحر لم يكن في حال هادئة فقد استأجرت قاربًا وأنزلته إلى الماء وذلك حتى لا أرفض طلبها واسمعها قائلة لي لا محالة أن البحر هادئ كالزيت وكنت أرتدي لباس البحر. أما آديل فكانت في كامل هندامها ومرة أخرى لم أصر على أن تخلع ملابسها خشية الجدل. ودفع خادم الحمامات القارب فأمسكت بالمجدافين وأخذت أجدف في قوة ونشاط في مواجهة الأمواج المقتربة. ولكنها لم تكن أمواجًا هائلة. وما أن ابتعدنا عن الشواطئ الرملية حتى أخذت أجدف في هدوء.

ومع ذلك حرصت على ملاقاة الأمواج رأسًا دون انحراف، لأنه من المحتمل أن ينقلب القارب وهو لا يعدو أن يكون العوبة إذا ما انحرفت به جانبًا. وكانت آديل جالسة في مقدم القارب وهي تعلو وتنخفض مع الأمواج وفجأة تولاني الغضب وأنا أنظر إليها إذ رأيتها في كامل هندامها وتذكرت أنني لم أجرؤ على نصحها بخلع ملابسها، وتملكتني الرغبة في أن أخبرها بأنني قابلت جوليا. فوصفت لها وأنا أجدف كيف أردت أن اختبر شخصية جوليا وكيف أنها لم تعارضني. وأنصتت إلى آديل بينما راح القارب يعلو وينخفض مع الأمواج. وأخيرًا قالت في هدوء:

– أنت مخطئ.. فعليها وحدها يقع اللوم.. فهي التي هجرتك.

أخذت أجذب المجدافين في قوة لملاقاة موجة أكبر من المألوف ثم أجبتها في غضب قائلاً: "أحب أن أعرف من ذا الذي قال لك هذا؟.. فقد أفهمتها ذات مساء إنني لم أعد أشعر الرغبة فيها.. بل إنني أذكر المكان الذي قلت لها فيه هذا. كان ذلك في لانجوتيفير".

وكانت تشوب صوت آديل نبرة خبيثة شريرة وهي تجيبني قائلة وقد تطاير شعرها في مهب الريح "إن ذاكرتك تخونك كالمعتاد.. فهي التي هجرتك.. إذ قالت عنك إنك تهوي الشجار على صورة لا تحتمل كما هو كذلك في الحقيقة. وإنها شعرت بأنها لن تستطيع الحياة معك".

– ولكن من ذا الذي قال لك هذا؟

– لقد قالت لي ذلك هي نفسها بعد بضعة أيام.

– لا صحة لهذا.. فقد قالت لك ذلك لكي تخفي خيبة أملها "الثعلب والعنب".

– إنها هي التي هجرتك يا جينو ولا تكن عنيدًا.. وقد تأكد لي هذا من أمها.

– أقول لك هذا بيس صحيحًا.. فقد كنت أنا الذي هجرها.

– لا ليس كذلك؟.

لست أدري أي شيطان تملكني في تلك اللحظة. فقد كان في إمكاني أن أتحمل المعارضة في أي شيء آخر إلا هذا. وأعتقد أن كبرياء الرجولة في

نفسي قد مست أيضًا. وعلى أية حال فقد تركت المجدافين ووثبت واقفًا على قدمي وأنا أصيح قائلاً: "أقول لك إنني الذي فعل هذا.. وهذا يكفي ولا أريد مزيدًا من الجدال.. و إن زدت على ذلك فسأضربك بالمجداف على رأسك".

فقالت – عليك فقط أن تحاول ذلك. ولكنك استشطت غضبًا ومعنى هذا إنك مخطئ.. فأنت تعلم إنما هي التي هجرتك.

– كلا بل أنا الذي هجرها.

وكنت وقتئذ أقف في وسط القارب وأنا أصيح. وكان ذلك إلى حد ما لكي يرتفع صوتي فوق ضجيج الأمواج. وراح القارب يعلو وينخفض وقد ترك مجدافاه فانحرف جانبًا دون أن يلحظه أحد. وأذكر أن آديل أيضًا قفزت واقفة على قدميها فجأة وصاحت قائلة في وجهي مباشرة وهي تحيط فمها بيديها لتضخم صوتها "إنما هي التي فعلت ذلك".

وفي نفس اللحظة ارتفع فوقنا جدار ضخم من الماء أشبه بالزجاج في خضرته وقد أبيض أعلاه ثم أقتحم القارب مباشرة وغمرنا، فقذف بي من فوق ظهر القارب يحدوني الاعتقاد في نفس الوقت بأن القارب لحسن الحظ لم ينقلب. وما لبثت أن غصت في البحر تجرني من قدمي إلى أسفل دوامة من الماء. فهبطت إلى أسفل مباشرة وابتلعت كمية من الماء ثم صعدت إلى السطح مرة أخرى وأنا أكافح التيار وأنادي آديل.

ولكنني عندما نظرت حولي رأيت أن القارب كان قد أبتعد قليلاً وإنه كان فارغًا وإنه لم يكن هناك أثر لآديل. فناديت اسمها مرة أخرى وأخذت

أسبح تجاه القارب دون أن أدري ماذا أنا فاعل. ولكن القارب يبتعد قليلاً مع كل موجة ويمتلئ فمي بالماء كلما ناديت آديل وكنت أفكر طيلة الوقت إنه من العبث متابعة القارب لأن آديل لم تعد ترى فيه.

وأخيرًا أقلعت عن ذلك وأخذت أسبح في دائرة بحثًا عن آديل. ولكن آديل لم يعد لها أثر. ولم أكن أرى إلا الموج يطارد بعضه بعضًا تجاه الشاطئ وعندئذ دب الخوار في قواي، وتولاني الخوف من الغرق فبدأت أسبح تجاه الشاطئ. ولم يمض وقت طويل حتى لمست القاع بقدمي. ورغم أنني كنت ما أزال على مسافة بعيدة من الشاطئ فقد توقفت وبدأت أصيح. وما لبثت في الواقع أن رأيت طوفًا يندفع قادمًا نحوي. وأخذت أنظر حولي أثناء قدومي باحثًا في البحر عن أي أثر لآديل.

ولكن البحر كان مقفرًا من الناس على مدى البصر فيما عدا ذلك القارب الخالي الذي كان يندفع مع التيار وقد ترك مجدافاه. وبدأت أبكي قائلاً: "آديل. آديل" مرات ومرات في صوت خفيض وكأنني أحدث نفسي. وخيل إلي أن ضجيج الأمواج يجيبني قائلاً: "هي التي فعلت ذلك". وكأن صوت آديل المتلاشية ما زال يحلق في الهواء وما زال يعارضني. ثم وصل الخدم بطوفهم. وظللنا نبحث عنها أكثر من ثلاث ساعات ولكن جثة آديل لم يعثر عليها قط لا في ذلك الصباح ولا خلال الأيام التالية.

وهكذا تركت أرمل. ومضى عام ثم استجمعت شجاعتي وذهبت لأرى جوليا. فأدخلتني أمها إلى غرفة الطعام حيث دخلت هي فقلت لها: "جوليا" لقد جئت في طلب يدك لتكوني زوجتي". فعلت وجهها حمرة الرضا والسرور

وأجابتني قائلة في صوت رقيق: "أنا لا أقول لا.. ولكنني يجب أن أحدث أمي في الأمر". وقد استلفت نظري تعليقها الأول ثم تذكرته بعد ذلك كبشير خير "أنا لا أقول لا".

حسنًا فقد تزوجنا. وعليكم إن شئتم أن تروا زوجين يجمع بينهما الانسجام التام أن تأتوا لرؤيتنا. فقد ظلت جوليا دائمًا كما كانت في ذلك الصباح تمامًا عندما أجابتني قائلة: "أنا لا أقول لا".

فتاة تشيوتشارا

نصحت الأستاذ بأن يحذرهن، لكنه أصر على وجهة نظره، فظللت أقول له: عليك أن تحاذر يا أستاذ، فهن فتيات ساذجات، وهن ريفيات حقًا.. فحذار مما أنت فاعل؟.. ففتيات تشيوتشارا[1] فلاحات أميات من أعماق الريف الحقيقي.. وكانت كلمة "أمسيات" هي التي بعثت الرضا في نفس الأستاذ.. "أميات.. هذا بالضبط هو ما يحتاج إليه.. فمثل هذه الفتاة على الأقل لن تقرأ قصاصاته المضحكة.. أميات".

وكان الأستاذ رجلاً مسنًا ذا لحية بيضاء مدببة وشارب أبيض وكان يقوم بالتدريس في المدرسة العليا. ولكن دراسة الآثار كانت حرفته الرئيسية. فقد تعود في يوم الأحد وفي أيام أخرى أيضًا على التجول هنا وهناك فكان يذهب إلى طريق أيبوس أو إلى الساحة أو إلى حمامات كارا كلا شارحًا آثار روما. وكانت كتب الآثار في منزله وكتب أخرى أيضًا مكدسة بعضها فوق بعض كما لو كان منزله دارًا للكتب. وتبدأ أكداسها من الباب الأمامي للمنزل حيث تختفي مجموعات منها خلف بعض الستائر الخضراء ثم تمتد في أرجاء المنزل في كل بهو وفي كل غرفة وفي كل فجوة.

كانت الكتب في كل مكان عدا الحمام والمطبخ. وكانت كتبه ثمينة في نظره كأريج الورد والويل لمن يلمسها! ولكنها بلغت عددًا كبيرًا حتى بدأ مستحيلاً أن يكون قد تمكن من قراءتها جميعًا. ومع ذلك فإنه لم يسعه قط

---

[1] منطقة ريفية إلى الجنوب الشرقي من روما ومركزها الرئيسية هو فروسبتون.

أن يكتفي منها بعدد معين. ففي ساعات فراغه من التدريس أو إلقاء الدروس في منزله أو شرح الآثار كان ينطلق إلى الأسواق الصغيرة حيث تباع الكتب المستعملة فيبحث وينقب في العربات المحملة بالكتب ثم لا يفتأ أن يعود إلى المنزل وقد حمل تحت ذراعه طردًا من الكتب. كان يجمعها في الواقع كما يجمع الصبية الصغار طوابع البريد. ولكن السبب في رغبته الجنونية في الحصول على فتاة من قريتي لتعمل خادمًا عنده كان سرًا غامضًا في نظري. لقد قال لي أنهن أكثر أمانة من غيرهن ولم تكن تراودهن أفكار سخيفة. وقال إنه كان يستمتع برؤية الفلاحات ذوات الوجنات الشبيهة بالتفاح الأحمر. كما قال إنهن طاهيات ماهرات.

وفي النهاية ولما لم يكن يمر يوم دون أن يطل على برأسه في غرفة البوابة.. وهو لا يفتأ يسأل عن فتاة تشيوتشارا الأمية. فكتبت إلى أبي في العماد عن هذا الموضوع فأجابني بأنه يعرف الشخص الملائم تمامًا لهذا العمل – وكانت فتاة من حي فاليكورسا تدعى (تودا) لم تكن جاوزت العشرين بعد. ومع ذلك فإن والدي في العماد قد أبلغني في خطابه بأن (تودا) لم يكن يعيبها إلا شيء واحد هو عجزها عن القراءة والكتابة. ولكنني أجبته بأن هذا بالضبط هو ما ينشده الأستاذ – شخص لا يعرف القراءة أو الكتابة.

وذات مساء وصلت تودا إلى روما في صحبة والدي في العماد وذهبت للقائها في المحطة. ورأيت من النظرة الأولى أنها كانت فتاة تشوتشاريه حقًا فقد كانت من أولئك النساء اللائي يقدرن على الاشتغال بحفر الأرض يومًا كاملاً دون أن يتوقفن لالتقاط أنفسهن أو اللائي لديهن القدرة على حمل سلة تزن نصف قنطار فوق رءوسهن ثم يذرعن بها الممرات الجبلية صعودًا وهبوطًا.

وكانت لها وجنتان حمراوان كما أحب الأستاذ والتفت حول رأسها خصلة طويلة من الشعر واقترن حاجباها الأسودان فكونا خطًا أفقيًا عبر جبهتها كما امتاز وجهها باستدارته.وكانت عندما تضحك تكشف عن أسنان صغيرة بيضاء وقد انتظمت متقاربة بعضها البعض – وكانت نساء تشيوتشارا ينظفنها عن طريق حكها بورقة من أوراق الخباري. حقًا إنها لم تكن تتزيا على الطريقة التشوتشارية ولكنها كانت في مشيتها كالمرأة التشوتشارية التي تعودت أن تضرب الأرض في ثبات ببطن قدمها وقد انتعلت حذاء مستويًا لا كعب له.

كما تتميز بربلتيها المفتولين اللتين تبدوان غاية في الجمال وقد التف حولهما حزامًا نعليها. وكانت تحمل سلة صغيرة على ذراعها أخبرتني أنها هدية لي. وكانت بها دستة من البيض الذي وضع حديثًا وقد لف بالقش وعطي بأوراق التين. فقلت لها أنه يحسن بها أن تعطيها للأستاذ لتترك في نفسه أثرًا طيبًا. ولكنها أجابت بأنه لم يتجه تفكيرها للأستاذ لظنها أنه لما كان سيدًا مهذبًا فلابد أن لديه دجاجًا. فأغرقت في الضحك. وهكذا اكتشفت من بضعة أسئلة من وجهتها إليها أثناء ركوبنا الترام أنها كانت همجية بالفعل. فهي لم تر قط في حياتها قطارًا أو ترامًا أو منزلاً مؤلفًا من ستة طوابق. وفي الواقع فإنها كانت أمية تمامًا كما أرادها الأستاذ.

وبلغنا المنزل فأخذتها أولاً إلى غرفة البوابة لأقدمها إلى زوجتي. ثم صعدنا بعد ذلك بالمصعد إلى شقة الأستاذ. وجاء ليفتح الباب بنفسه لأنه لم يكن لديه خادم وكانت زوجتي عادة هي التي تقوم بتنظيف الشقة وإعداد قليل من الطعام له. وما أن دخلنا حتى وضعت تودا السلة بين يديه قائلة: هاك

أيها الأستاذ بعض البيض الطازج الذي أحضرته إليك. فقلت لها: لا يجب أن تخاطبي الأستاذ بكلمة أنت يا بنيتي..

ثم أوضح لي أن هذا اللفظ روماني وأن الرومان القدماء كانوا مثل أهل تشيوتشارا لا يعرفون صيغة الخطاب الحديثة "أنتم" وكانوا يعاملون كل شخص بلا تكلف كما لو كانوا جميعًا ينتمون إلى أسرة واحدة. ثم قاد الأستاذ تودا إلى المطبخ الذي كان يشغل غرفة كبيرة مزودة بموقد من الغاز وأوان من الألمونيوم بل زودت في الواقع بكل ما كان ضروريًا. ثم شرح لها طريقة تشغيل كل تلك الأشياء. وأنصتت تودا في هدوء وجد إلى كل ما قيل لها, ثم قالت بصوتها الرنان: "ولكنني لا أعرف الطهي".

فقال الأستاذ مندهشًا: ماذا تعنين؟.. لقد قيل لي أنك تعرفين الطهي.

فقالت: لقد كنت أعمل في مسقط رأسي في الريف..كنت أحرث الأرض في الحقول. كما كنا بالطبع نطهو شيئًا من الطعام ولكن بقدر ما يقيم الأود فحسب.. غير أنه لم يكن لي قط مطبخ كهذا.

– أين كنت تطهين الطعام؟

في الكوخ.

فقال الأستاذ وهو يجذب لحيته: حسنًا. نحن نطهو الطعام هنا أيضًا ليكون لدينا ما يقيم الأود.. والآن فلنفرض إنك ستقومين بإعداد العشاء لي حتى يكون لدي ما يقيم أودي. فماذا تفعلين؟

فابتسمت قائلة: أعد لك بعض المكرونة والفول.. ثم أقدم إليك قدحًا

من النبيذ.. ثم – حسنًا. أقدم إليك بعض البندق أو قليلاً من التين المجفف.

– أهذا كل شيء؟.. أما من لون ثان؟

– ماذا تعني بلون ثان؟

– أعني نوعًا آخر من الطعام – كالسمك أو اللحم؟

عندئذ انفجرت ضاحكة على صورة سافرة ثم قالت: ولكنك عندما تأكل صفحة مملوءة بالمكرونة والفول بالخبز إلا يكفيك هذا؟ ماذا تريد أكثر من ذلك لقد كنت أحرث الأرض طيلة النهار على صفحة من المكرونة والفول مع بعض الخبز.. كما أنك لا تعمل..

– ولكنني أعمل فعلاً أدرس وأكتب. فأنا أعمل أيضًا.

– حسنًا... حسنًا.. يمكنك أن تدرس إن شئت.. ولكننا نحن الذين نقوم بالعمل الحقيقي.

وخلاصة القول إنه لم يمكن إقناعها بضرورة وجود اللون الثاني من الطعام كما قال الأستاذ. وفي النهاية وبعد مناقشات طويلة استقر الرأي على أن تأتي زوجتي وتعلم تودا الطهي بعض الوقت. ثم ذهبنا إلى غرفة الخادمة وكانت غرفة واسعة تطل على الفناء وقد زودت بفراش "وبوريه" وصوان للملابس. فقالت في الحال وهي تنظر في أرجائها:

– وهل سأنام وحدي؟

– مع من تريدين أن تنامي؟

– لقد كنا في منزلنا ننام خمسة أفراد في غرفة واحدة.

– هذه الغرفة كلها لك.

وتركتهما في النهاية بعد أن أوصيتها بالحرص والعناية وبحسن أداء عملها وذلك لأنني لم أكن مسئولاً أمام الأستاذ فحسب بل أيضًا أمام أبي في العماد الذي أرسلها إلى بناء على طلبي... وبينما كنت في طريقي إلى الخارج سمعت الأستاذ بشرح لها قائلاً:

– والآن انتبهي.. عليك أن تنظفي كل هذه الكتب يوميًا. بمهفة من الريش وممسحة.

فسألته قائلة:

– ولكنك ماذا تفعل بكل هذه الكتب؟ وما الذي تفيده منها؟

فأجابها قائلاً:

– إنها عندي كالجاورف بالنسبة لك في مسقط رأسك.. فأنا أعمل بها.

فقالت: نعم.. ولكنني لا أملك إلا جاروفًا واحدًا.

ومنذ ذلك اليوم كان الأستاذ يأتي إلى غرفة البوابة بين الحين والحين ويدلي بأنباء "تودا".. والحقيقة أنه لم يعد مسرورًا كما كان من قبل. فقد قال لي ذات يوم: "إنها ريفية حقًا... أتعلم ماذا فعلت أمس؟ لقد تناولت ورقة مكتوبة من على مكتبي وكان بها تمرين لأحد تلامذتي واستخدمتها في صنع سدادات لزجاجات النبيذ". فقلت له: "لقد حذرتك يا أستاذ.. إنها من أهل الريف الحقيقيين". فاختتم حديثه معي قائلاً: "نعم ولكنها فتاة عزيزة. إنها طيبة كريمة.. وهي فتاة عزيزة حقًا".

ولم تلبث الفتاة العزيزة كما كان يسميها أن حذت حذو الفتيات الأخريات جميعًا, فما إن حصلت على أجرها حتى ابتاعت لنفسها ثوبًا يتألف من قطعتين فبدت كسيدة صغيرة مهذبة. ثم اشترت لنفسها بعض الأحذية ذات الكعوب العالية وحقيبة يد صنعت من جلد شبيه بجلد التمساح. كما قصت جديلة شعرها الطويلة – للأسف الشديد.

حقًا إنها ظلت تحتفظ بوجنتيها الحمراوين كالتفاح وذلك لأن الشحوب لن يستطيع أن يعلوهما بسرعة كما فعل في غيرها من الفتيات من بنات المدينة. وقد كانت وجنتاها بالفعل مصدرًا للجاذبية لا يقتصر على الأستاذ فحسب. ففي أول مرة رأيتها مع ذلك التعس ماريو سائق سيارة السيدة التي تسكن الطابق الثالث قلت لها: "والآن خذي حذرك فليس هذا هو الشخص المناسب لك.. فكل ما يقوله لك يردده لجميع صديقاته". فأجابت قائلة: لقد صحبني أمس في السيارة إلى مونت ماريو". فقلت لها: "حسنًا. وماذا في ذلك"؟ فقالت: "إنه لمن الممتع ركوب السيارة إلى هناك.. وفضلاً عن ذلك انظر ماذا أعطاني". ثم أرتني مشكًا معدنيًا أبيض ركب عليه قبل صغير من ذلك النوع الذي يعرضه الباعة في الكاميو دي فيوري. فقلت لها: "إنك فتاة ساذجة. كما أنك لا تدركين أن هذا الرجل يقودك من أنفك. وأكثر من هذا فإنه لا يجب أن يخرج معك وحده بالسيارة.. فلو أن السيدة علمت بذلك لوقع في أشكال. والآن حذار. أقولها لك مرة أخرى حذار". ولكنها ابتسمت واستمرت في خروجها مع ماريو.

ومضى أسبوعان ثم جاء الأستاذ ذات يوم إلى غرفة البوابة وانتحى بي جانبًا ثم قال لي مخفضًا صوته: "جيوفاني. أليست هذه الفتاة أمينة"؟ فقلت:

"إني واثق من هذا يا أستاذ. فهي جاهلة ولكنها أمينة". فقال دون اقتناع: "ربما ولكن خمسة من كتبي القيمة قد اختفت.. أنا لا أحب أن.." فاحتججت مرة أخرى قائلاً: لا يمكن أن تكون تودا هي السارقة وإني لعلي يقين من أنه سيعثر عليها.

ولكنني أعترف بأنني انزعجت وقررت أن أكون يقظًا. وذات مساء بعد مضي بضعة أيام رأيت تودا وهي تدخل المصعد في صحبة ماريو الذي قال إن عليه أن يصعد إلى الطابق الثالث ليتلقى تعليماته من السيدة وكانت هذه أكذوبة لأن السيدة كانت قد خرجت منذ أكثر من ساعة وكان هو يعلم ذلك. فتركتهما يصعدان ثم دخلت أنا نفسي المصعد واتجهت رأسًا إلى شقة الأستاذ. وحدث إنهما تركا الباب مردودًا فدلفت إلى الداخل وسرت في البهو حيث سمعتهما يتحدثان في غرفة المكتبة. وأدركت أنني لم أكن مخطئًا. فاقتربت من الباب في بطء شديد ثم نظرت إلى الداخل فماذا رأيت؟ كان ماريو يقف على مقعد يستند إلى خزانة الكتب وقد مد يده إلى صف من الكتب كان قريبًا من السقف. أما هي تلك القديسة الصغيرة ذات الوجنتين الحمراوين فقد أمسكت له بالمقعد قائلة: "هذا الكتاب هناك.. هذا الكتاب الكبير الجميل.. هذا الكتاب الكبير الجميل ذو الغلاف الجلدي".

ثم انسحبت إلى خارج الغرفة قائلاً: "أحسنت صنعًا يا تودا.. بل أحسن كلاكما صنعًا.. لقد ضبطتك الآن.. وكان الأستاذ قد أخبرني بذلك ولكنني لم أصدقه.. حسنًا فعلت حقًا".

هل رأيتم قط هرة يلقي عليها ملء سطل من الماء من إحدى النوافذ؟

هكذا فعل ماريو بالضبط لحظة سماعه صوتي. فقد وثب إلى الأرض واندفع يجري وقد تركني وحيدًا مع تودا. ولقنتها درسًا كان كفيلاً بأن يجعل معظم الفتيات ينفجرن باكيات على الأقل.. ولكن كلا مطلقًا فالحال يختلف تمامًا مع نساء تشيوتشارا. فقد أنصتت إلى مطأطئة رأسها دون أن تنبس ببنت شفة. ثم رفعت عينيها اللتين خلتا من كل أثر للدموع وقالت: "حسنًا. من ذا الذي كان يسلبه ما له؟ فإني أرد له دائمًا كل النقود المتبقية بعد شراء الحاجيات.. فأنا لا أفعل ما تفعله غيري من الطاهيات اللائي يأخذن ثمن كل شيء مضاعفًا.

– أيتها الفتاة التعسة.. ألم تسرقي الكتب؟ أليست هذه سرقة؟

– ولكنه يملك الكثير منها..

– كثيرًا أو قليلاً فليس لك أن تلمسيها.. والآن حذار فإن ضبطتك مرة أخرى عدت فورًا إلى بلدتك.

وأبت في عناد حينذاك أن ترى سببًا لاتهامها بالسرقة أو تعرف لحظة بها. وبعد بضعة أيام إذا بها تأتي إلى غرفة البوابة حاملة طردًا تحت ذراعها. ثم قال: "ها هي ذي. ها هي كتب الأستاذ.. لقد أحضرتها إليه حتى لا يكون لديه الآن سبب الشكوى.

فقلت لها إنها أحسنت عملاً وحدثت نفسي قائلاً إنها كانت قبل كل شيء فتاة على خلق وأن اللوم كله يقع على ماريو. فصعدت معها في المصعد ودخلت معها الشقة لأساعدها على إعادة الكتب إلى مكانها وفي تلك اللحظة بالذات بينما كنا نفض الطرد داخل علينا الأستاذ.

قلت: "ها هي كتبك يا أستاذ. لقد أعادتها تودا.. إذ إنها كانت قد أعارتها صديقة لها لتتصفح ما بها من صور".

– حسنًا. حسنًا.. لن نعود إلى ذكر هذا الموضوع.

وأكب الأستاذ على الكتب وهو لا يزال يرتدي معطفه وقبعته ثم تناول واحدًا منها وما أن فتحه حتى صاح قائلاً: "ولكن هذه ليست كتبي".

– ماذا تعني؟

فأردف قائلاً وهو يقلب كالمحموم صفحات الكتب الأخرى: "إن كتبي كانت عن الآثار القديمة.. وهذه خمسة مؤلفات عن القانون. وفضلاً عن ذلك فكل منها مفرد لا صلة له بالآخر".

فقلت لتودا: هلا قلت لنا ماذا فعلت بها؟

عندئذ احتجت في عنف قائلة: "لقد أخذت خمسة كتب وأحضرت خمسة كتب.. فما الخطأ في هذا؟.. لقد دفعت مبلغًا كبيرًا ثمًا لها يزيد عما أعطوني إياه عندما بعتها".

واستولت على الأستاذ دهشة كبيرة جعلته ينظر إلي وإلى تودا فاغرًا فاه دون أن ينطق بكلمة .. وأردفت تودا تقول: "إنها نفس الأغلفة، بل أفضل منها.. أنظر إليها.. كما أنها تعادلها في الوزن تمامًا. إذ إنني وزنتها فبلغ وزنها أربعة كيلو ونصفًا – وهو وزن كتبك".

عندئذ انفجر الأستاذ ضاحكًا ولكنه كان ضحكًا مريرًا. وقال: "إن الكتب لا تباع بالوزن.. كلحم العجل. بل إن كل كتاب يختلف عن الآخر..

ماذا أفعل أنا بهذه الكتب؟.. ألا ترين؟ إن كل كتاب يحتوي على أشياء مختلفة.. لمؤلفين مختلفين".

وقد استحال عليه إقناعها فظلت تردد قائلة في عناد: "كانت كتبك خمسة وها هي ذي خمسة كتب.. وكانت لها أغلفة وهذه لها أغلفة. هذا كل ما أعرفه".

وقصارى القول فقد أمرها الأستاذ بالعودة إلى المطبخ قائلاً: "اذهبي لطهو الطعام.. يكفي هذا.. فأنا لا أريد أن تثأر أعصابي". وعندما ذهبت قال لي: "وإني آسف.. فهي فتاة ولكنها في الحقيقة شديدة السذاجة".

– إنها بغيتك يا أستاذ.

فقال: هي غلطتي.

وبقيت تودا في خدمة الأستاذ بينما راحت تبحث عن عمل آخر. حتى اشتغلت غسالة بأحد محال اللبن في نفس الحي. وهي تأتي لزيارتنا في غرفة البوابة. أما موضوع الكتب فلا يأتي ذكره مطلقًا. ولكنها تقول لي إنها تتعلم القراءة والكتابة.

الصداقة

كان اسم "ماريا روزا" اسما مزدوجا، كذلك كانت المرأة التي تحمله مزدوجة أيضًا من الناحيتين الفيزيقية والخلقية. فقد كان وجهها تختلط فيه الحمرة بالبياض ويشبه في حجمه بدر التئم مما لا يتناسب مطلقًا مع جسمها ذي الحجم الطبيعي، كانت تذكرك بتلك الورود التي تسمى ورد القوقاز "أو ورد الكرنب" وذلك لأنك في حجم الكرنب وصلابته.

وفي الواقع فإنك عندما تراها لا يسعك إلا أن تتصور أنه من الممكن بسهولة أن يشكل من وجهها وجهان. وفضلاً عن ذلك فإن هذا الوجه الكبير كان دائم الهدوء والطهر والابتسام. نقيض خلقها تمامًا الذي كان كما اكتشفت وكلفني ذلك ما كلفني، شيطانيًا لا ريب في ذلك. هذا هو ما دعاني لأن أقول أنها كانت مزدوجة من الناحية الخلقية أيضًا.

لقد غازلتها بكل الطرق الممكنة. ففي أول الأمر اتبعت معها سبيل الإيعاز في احترام وشهامة. ولما لم أر منها اهتمامًا فقد تذرعت بمزيد من الجرأة ومزيد من المبادأة بالتحرش فصرت أقطع عليها الطريق في منتصف الدرج وأوقفها عند البسطة التي يتكاثف عندها الظلام ثم أحاول تقبيلها عنوة، فلم أحصل إلا على بضع دفعات عنيفة ثم تلقيت في النهاية صفعة على الوجه.

فقررت أن أتظاهر نحوها بالاحتقار والاستياء والتجاهل مشيحًا بوجهي كلما لقيتها. ولكن ذلك كان أسوأ سبيلاً مما مضى فقد عاملتني وكأني لا وجود لي مطلقًا. وفي النهاية بدأت أتوسل إليها في ضراعة ملتمسًا منها

والدموع في عيني فما من مجيب. ليتها ثبطت عزمي كلية وإلى الأبد! ولكنها كانت في خبث تعاود أسري من جديد بعبارة أو نظرة أو حركة في نفس اللحظة التي أكون فيها على وشك التخلي عنها تمامًا. وتعلمت بعد ذلك أن المعجبين في نظر المرأة كالقلائد والأسورة أي أنهم زينة تؤثر المرأة ألا تتجرد منها ما أمكنها ذلك فكنت كلما أرى نظرة أو حركة من ذلك النوع أحدث نفسي قائلاً: لا شك أن هناك شيئًا وراء هذا. فلأحاول من جديد. وفجأة علمت أن تلك الغانية اللعوب قد خطبت لاتيليو وهو أحب أصدقائي وأخلصهم فغضبت لذلك غضبًا شديدًا لأسباب عدة:

أولاً: لأنها فعلت ذلك على مرآي مني ودون أن تخبرني بشيء.

ثانيًا: لأنني أنا الذي قدم اتيليو إليها. فقد كنت على غير وعي مني ستارًا لهم.

ولكني صديق مخلص والصداقة عندي تأتي قبل كل شيء. فقد كنت أحب ماريا روزا ولكنها منذ اللحظة التي خطبت فيها لاتيليو أصبحت في نظري من المقدسات. لا شك أنها كانت تود لو واصلت استفزازي والتحرش بي. ولكنني أوضحت لها كل شيء بكل السبل الممكنة حتى صارحتها يومًا ما في النهاية قائلاً: "أنت امرأة ولا تفهمين معنى الصداقة.. ولكنك منذ اللحظة التي بدأت فيها علاقتك بأتيليو فقد أصبحت في نظري وكأنك لست في الوجود مطلقًا. فأنا لا أراك ولا أسمعك.. أتفهمين"؟

عندئذ تظاهرت بالاعتراف بأنني على حق. ولكنها لما واصلت مغازلتي بعد ذلك فقد قررت ألا أعود إلى رؤيتها وحافظت على كلمتي. وسمعت بعد

ذلك إنهما تزوجا وذهبًا ليعيشا مع أختها التي كانت تعمل ممرضة وأن اتيليو الذي كان عادة يظل عاطلاً في معظم أيام الأسبوع قد وجد عملاً كبواب في شركة للحمالين. وظلت ماريا روزا تشتغل بكي الملابس كما كانت تفعل من قبل ولكنها كانت لا تعمل إلا نهارًا. وكان هذا الخبر بالنسبة لي في أحد معانيه بلسمًا شافيًا لجراحي. فعندئذ عرفت في الحقيقة أنهما لا يتمتعان برغد العيش وإن زواجهما لا يمكن أن يكون موفقًا للغاية. ولكنني كصديق مخلص وفي ظللت مختفيًا عن أنظارهما فالصديق هو الصديق والصداقة شيء مقدس.

أنا أعمل سباكًا والجميع يعملون أن السباكين يطوفون بالمنازل منزلاً بعد الآخر ويحدث أحيانًا في طوافهم هذا أن يجدوا أنفسهم في أماكن لا يرغبون في الذهاب إليها وذات يوم كنت في طريقي إلى أحد العملاء حاملاً حقيبة أدواتي على كتفي وقد أحاطت بذراعي لفة مزدوجة من الأنابيب الرصاصية عندما سمعت نداء أسير في شارع "فيا ربيتا" يهتف بي قائلاً: "أرنستو"! فاستدرت فإذا بها هي التي تناديني. وما أن رأيتها بوجهها القوي الهادئ الماكر وجسمها الضئيل ذي الخصر الدقيق وأردافها المستديرة وصدرها الممتلئ حتى عاودني شعوري ذي القديم الذي كان يذهب أنفاسي. ولكنني حدثت قائلاً: "أنت صديق.. فيجب عليك أن تسلك سلوك الصديق". وقلت لها في جفاء: "إذا فها نحن نلتقي مرة أخرى".

كانت تحمل على ذراعها حقيبة المشتريات وقد امتلأت بالخضراوات والطرود المحزومة بالورق الأصفر. فقالت وهي تبتسم: ألا تعرفيني"؟

– بالطبع. ألم أقل ها نحن نلتقي مرة أخرى"؟

فأردفت قائلة: "أودت لو عدت معي إلى المنزل. فقد اكتشفت هذا الصباح فقط أن أنبوبة البالوعة في المطبخ مسدودة. فأنت عائد معي إذن. أليس كذلك؟

فأجبتها قائلاً بضمير حي: حسنًا. إن كان ذلك للقيام بإصلاح ما.. فرمتني بنظرة من تلك النظرات التي كانت تدير رأسي في الأيام الخوالي. وأردفت تقول: "ولكنك يجب أن تحمل عني حقيبة المشتريات". وهكذا كنت كالحمار الذي يحمل أسفارًا وأنا أسير في أثرها محملاً بحقيبة أدواتي وبالأنابيب الرصاصية وبحقيبة المشتريات بينما كانت تمشي هي أمامي.

ولم يكن علينا أن نمشي مسافة بعيدة لنصل إلى شارع يتقاطع مع "فيا ربيتا" حيث دخلنا منزلاً من خلال باب صغير كان يشبه مدخل الكهف ثم صعدنا درجًا رطبًا مظلمًا تفوح منه رائحة قذرة وما كدنا نصل إلى منتصف الدرج حتى استدارت نحوي قائلة وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة: هل تذكر كيف كنت تكمن لي على البسطة في الظلام؟ لشد ما كنت تخيفني! أم هل نسيت"؟ فأجبتها بفتور: "ماريا روزا إني لا أذكر شيئًا. كل ما اذكره هو أنني صديق اتيليو وإن الصداقة تأتي قبل كل شيء". فأجابت قائلة في ارتباك: "حسنًا. ومن ذا الذي يقول أنك لا يجب أن تحافظ على صداقتك به"؟

ودلفنا إلى داخل الشقة حيث كانت هناك ثلاث غرف صغيرة تحت السقف تطل نوافذها على فناء يشبه البئر لشدة ظلامه وخلوه من الشمس. ولم يكن المطبخ يتسع لأن يستدير الشخص إلى الخلف. وكان الباب الزجاجي يؤدي إلى شرفة صغيرة بها دورة المياه. وجلست ماريا روزا على

أحد المقاعد وفتحت ما بين ساقيها بينما امتلأ حجرها بالقول الذي كان عليها أن تقشره. أما أنا فبعد أن وضعت حقيبة أدواتي على الأرض جثوت بجانب البالوعة لأقوم بالإصلاحات. وما لبثت أن رأيت في الحال أن الأنبوبة كانت مستهلكة وإنها يجب أن تستبدل بأخرى جديدة فأنذرتها قائلاً: أترين؟ لابد من تركيب أنبوبة جديدة فهل أنت على استعداد لدفع الثمن؟

– وماذا عن صداقتك؟

فقلت متنهدًا: "آه حسنًا. سأركبها بدون مقابل.. ولكن عليك أن تمنحيني قبلة في مقابل ذلك".

– وماذا عن صداقتك؟

فعضضت شفتي وأنا أحدث نفسي قائلاً: "إنها سلاح ذو حدين" ولكنني لم أقل شيئًا. بل تنازلت الكلابة وحللت الصواميل التي كانت تالفة كالأنبوبة ثم أبعدت الأنبوبة وتناولت موقد اللحام من حقيبتي وصببت فيه قليلاً من البترول وأنا ما زلت ملتزمًا الصمت. عندئذ سمعتها تسألني قائلة:

– هل أنت حقًا صديق لاتيليو؟

فاستدرت ونظرت إليها. كانت تجلس هناك خافضة بصرها وقد رسمت على وجهها ابتسامة حلوة كالعسل وهي مكبة على قشر الفول. فقلت:

– نعم بالطبع.

فأردفت تقول في هدوء:

– إذن فيمكنني أن أتحدث إليك في صراحة.

.. لشد ما أود لو صارحتني وأنت تعرفه معرفة حقه إن كنت تؤمن بصحة بعض ما لدي من آرائه عنه.

فأذنت لها بالكلام. وكنت في أثناء ذلك قد أشعلت الموقد وأخذت أضبط اللهب. وأردفت تقول: "ألا تظن مثلاً أن العمل الذي وجدع لا يكاد يلائمه؟ عمله كحمال..".

– تقصدين كبواب..

– إن العمل كحمال ليس مهنة مطلقًا.. إني أحاول إقناعه بأن يتدرب ليصبح ممرضًا.. وفي إمكان أختي أن تلحقه بالعيادة الخارجية.

كنت في أثناء ذلك قد أولجت الأنبوبة. فتناولت موقد اللحام وسألتها وأنا لا أكاد أفكر فيما أقول بينما تدلي الموقد بين يدي: "أتريدين الصدق أم تريدين أن أكون مؤدبًا؟

فقالت: أريد الصدق.

فقلت حسنًا. أنا صديق لاتيليو ولكن هذا لا يمنعني من رؤية عيوبه.. عيوبه.. فهو كسول في المحل الأول..

وتناولت قطعة من الصفيح وسلطات عليها الموقد وبدأت عملية اللحام.. وكان اللهيب يحدث زئيرًا فرفعت صوتي ليعلو فزق الضجيج. قلت: "نعم كسول. فعليك يا فتاتي العزيزة أن تألفي الحياة مع زوج عاطل.. فأنا عامل مجد ولكنه ليس كذلك. فهو نئوم الضحى يهوي التسكع والتردد على المقاهي وقراءة الصحف ومناقشة أنباء الرياضة. فربما كان على ما يرام

كبواب – أما كممرض وهو عمل له مسئوليات.. كلا. فأنا لا أرشحه لذلك".

فأردفت تقول بنفس اللهجة الهادئة المتأملة: "ولكنني لست واثقة. لست واثقة حتى من حصوله على هذه الوظيفة.. فهو يتحدث عن ذهابه إلى العمل – ولكنني لم أر معه نقودًا بعد.. وبدأت أعتقد أنه ربما كان يكذب علي.. فما رأيك"؟

فقلت دون تفكير: يكذب عليك؟ أنه أكذب من عرفت.. فهو يصور لك أشياء لا وجود لها مطلقًا.. أما عن الكذب فيمكنك أن تثقي تمامًا.

فقالت: "هذا هو رأيي بالضبط.. ولكنه إن كان لا يذهب إلى عمله فماذا يفعل؟ أنا لا أصدق أنه لا هم له حقًا إلا التسكع والتردد على المقاهي. فلابد أن هناك شيئًا ما.. فهو لا يفتأ يغادر المنزل في عجلة شديدة كما أنه دائمًا مشغول الذهن للغاية". ثم توقفت عن الحديث لتتناول آنية كبيرة من فوق الرف لتضع فيها الفول الذي قشرته.. ونظرت إليها من فوق كتفي فإذا بها مبتسمة هادئة رزينة. وما لبثت أن أردفت قائلة: "أتعرف ماذا أعتقد؟ إن هناك امرأة وراء كل هذا.. فهل يمكنك أنت يا من يعرفه أن تخبرني إن كان ذلك صحيحًا؟

وإذا بهاتف من داخل نفسي ينذرني قائلاً: "والآن حذار يا أرنستو تمهل. فهناك فخ.."ولكن سواء أكانت المرارة في نفسي أقوى من فطنتي أم أن أمالاً جديدة بدأت تراودني عندما سمعتها تنال من زوجها على هذه الصورة فإني لم أتمالك نفسي من أن أقول: "اعتقد أنك على حق.. فالنساء كل شيء في

نظره سواء كن جميلات أو دميمات صغيرات أو كهلات.. ألا تعرفين ذلك".

وانتهت عملية اللحام. ثم أطفأت الموقد وسويت بأصبعي المعدن الذي كان لا يزال لينا مصهورًا. وبدأت أحكم ربط الصامولة بمفتاحي وفي أثناء ذلك كانت تقول في هدوء: نعم كنت أعرف شيئًا عنه ولكني لم أعرفه على وجه الدقة. لقد خطر لي الآن – فربما كان على علاقة بإميليا، تلك الفتاة ذات الشعر الأحمر – أتعرفها؟ – التي كانت تعمل معي في المغسل.. فما رأيك؟

فنهضت واقفًا على قدمي. كما نهضت ماريا روزا بعد أن وضعت الفول في الآنية وراحت تهز ثوبها لتتخلص من القشر، ثم اتجهت إلى الحوض وأمسكت بالآنية أسفل الصنبور وصبت فيها بعض الماء. وذهبت لأقف خلفها حيث وضعت كلتا يدي حول ذلك الخصر الرائع في تحوله وضموره قائلاً: "نعم هذا صحيح تمامًا فهو يلتقي بإميليا في ساعة متأخرة من أصيل كل يوم حيث ينتظرها خارج المغسل ويذهب معها إلى المنزل. إنك تعرفين القصة كلها فماذا كنت تتوقعين"؟

فأدارت وجهها قليلاً في ابتسامة ثم أجابت قائلة: أرنستو ألم تقل لي إنك صديقه؟ فلتتركني وشأني!

وكان جوابي الوحيد هو أنني حاولت أن أضمها بين ذراعي ولكنها تخلصت من عناقي وقالت في صوت جاف: "والآن لقد قمت بالإصلاحات فيحسن بك أن تنصرف. فعضضت شفتي. وأجبتها قائلاً: أنت على حق.. ولكنك تفقديني صوابي.. فعلي أن أتذكر طيلة الوقت أنني صديق لاتيليو

وإنك زوجته. وأحسست بالذلة وأنا أقول لها ذلك فجمعت أدواتي وكدت أودعها وانصرف عندما فتح باب المطبخ وظهر أتيليو، فسر لرؤيتي وحياني في ود ومحبة قائلاً: مرحي يا أرنستو؟ فأجبته قائلاً: لقد طلبت إلى ماريا روزا أن أصلح الأنبوبة ففعلت, بل إنني في الواقع ركبت أنبوبة جديدة. فقال مقبلاً نحوي: شكرًا لك. شكرًا جزيلاً, وفي تلك اللحظة بعينها انبعث صوت ماريا روزا هادئًا مغتصبًا فاستدار كلانا عند سماعه, بدأت قائلة: اتيليو.

كانت واقفة بجانب الموقد وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة واستقرت يدها على قمة الموقد. وأردفت تقول دون أن تلتقط أنفاسها وجون أن ترفع صوتها.

– اتيليو يقول أرنستو أنك كسول ولا تحب العمل..

– هل قلت هذا؟

– كما أنه يقول متفقًا معي في الرأي أنك كذاب أشر.. وأنه من الجائز جدًا أنك لم تحصل حقًا على وظيفة بواب...

– هل قلت هذا؟

– ثم أكد لي ما كنت أعرفه من قبل، وهو أنك تلتقي بإميليا كل يوم وإنك على علاقة بها.. ففي حين أنني لا أعدو أن أكون خادمة لأعمال شاقة أكدح في كي الملابس متنقلة من منزل إلى آخر إذا بك تلهو مع آميليا ثم تزعم لي إنك تذهب إلى العمل.. لا جدوى الآن من محاولتك الإنكار فإن أرنستو صديقك قد أكد لي كل شيء تأكيدًا تامًا..

كانت تتكلم في صوت هادئ تمامًا وأدركت لأول مرة أنني انسقت إلى ائتمان امرأة معتوهة على بعض الأسرار وبالفعل فإنها ما كادت تنتهي من حديثها، بينما كان هو يقترب مني وعلى وجهها تعبير قبيح وهو يرد قائلاً: هل قلت هذا؟

تناولت مكواة ثقيلة مستوية كانت على الموقد وقذفته بها في رأسه. ولشد ما كانت دقيقة في إصابة الهدف حتى إنه لو لم يحن رأسه لقتلته. وإنه ليشق على أن أصف ما حدث بعد ذلك. ظلت تناول الأشياء من على الموقد في تصلب وهدوء وجنون – أشياء ثقيلة خطيرة كالسكاكين والشوابق والقدور والطاسات – وتقذفه بها أما هو فقد تسلل خلال الباب وفر هاربًا. وبعد ما حاول أن يحمي نفسه منها مرتين أو ثلاثًا. كما لذت أنا أيضًا بالفرار تاركًا ياردتين أو ثلاثة من الأنابيب الرصاصية على الأرض واندفعت هابطًا الدرج بينما راح وهو يصرخ في قائلاً: إياك أن تأتي إلى هنا مرة أخرى.. فإني سأقتلك إن رأيتك هنا مرة أخرى.

ولم أشعر إنني في مأمن حتى عبرت الجسر ووجدت نفسي مرة أخرى في حدائق ميدان الحرية وهناك جلست على مقعد لاسترد أنفاسي ثم فكرت أن الصداقة هي التي جعلتني أتكلم لا لسبب إلا لأنني كنت أعلم أن أخلاق أتيليو كانت على هذه الصورة فعلاً ولقد أغضبني ذلك. وأقسمت لنفسي أنني منذ اليوم فصاعدا لن أصادق أحدًا البتة..

الأحمق المسن

إن كانت المغازلة من عاداتك، فإنك لن تعرف متى ينتهي الوقت الملائم لذلك عندما تأخذ النساء في النظر إليك كأب أو حتى كجد وهو أسوأ سبيلاً. يتعذر ذلك في صفة خاصة لأن كل رجل في منتصف العمر ينطوي رأسه على رأس آخر. فرأسه الخارجي تكسوه التجاعيد ويخطه الشيب ونفسد أسنانه وينطفئ بريق عينيه. أما رأسه الداخلي من الناحية الأخرى فإنه يظل على حاله تمامه كما كان في شبابه ذا شعر أسود كثيف ووجه ناعم وأسنان بيضاء وعينين لامعتين. والرأس الداخلي هو الذي ينظر في حنين إلى النساء ظنًا منه أنهن يرونه. ولكن النساء بالطبع لا ترى إلا الرأس الخارجي فيقلن: "ماذا يريد هذا الناطور المسن؟ ألا يمكنه أن يرى أنه بلغ من السن ما يجعله جدًا"؟

في ذلك العام اتسع الصالون الذي ظللت أعمل فيه كحلاق حوالي ثلاثين عامًا فتغيرت المرايا والأحواض وأعيد طلاء الجدران والخزائن وأخيرًا خطر لصاحب المحل أن يستخدم كذلك مدرمة للأظافر. وكانت تدعي "أيول". وكان هناك فضلاً عن صاحب المحل ثلاثة عمال أحدهم شاب في حوالي الخامسة والعشرين من العمر يدعي آماتو وهو أسمر اللون عليه سيماء الجد كان يعمل من قبل شرطيًا. ثم جيوسبي وكان يكبرني بخمسة أعوام وهو قصير بدين أصلح الرأس. ثم أنا نفسي. وكما يحدث دائمًا عندما تدخل المرأة بيئة ليس بها سوى الرجال فإني لم ألبث أن لاحظ أننا رحنا ثلاثتنا ننظر في إلحاح إلى آيول.

أما هي، فيمكنني أن أقول إنها كانت تمثل ذلك الصنف من النساء الذي نعنيه بعبارة "بطاقة بريد مصورة" فكانت وسيمة متباهية جميلة التقاطيع سوداء الشعر ولكن هناك ملايين على شاكلتها. والآن لابد أن يلاحظ عند هذه النقطة أنني أستطيع أن أزعم دون رغبة في التفاخر أو المباهاة بأنني رجل وسيم. فأنا نحيل الجسم ذو قامة ملائمة تمامًا ووجه قوي شاحب. وتقول النساء أن تعبيرًا مثيرًا للاهتمام يرتسم على وجهي.

ولا شك أن عيني تلفتان النظر، وخاصة إذا حانت مني نظرة جانبية. فهما رقيقتان وممتلئتان بالإحساس ولكنهما تتميزان بمسحة من الريبة والشك. ولكن شعري هو أجمل ما في فهو عسجدي ناعم نظيف مموج قصي أي على طريقة تجعله منتصبًا ككتلة من ألسنة اللهب وقد أرخيت ذؤابتاه حتى منتصف الوجنتين. وفضلاً عن هذا فأنا دائمًا أنيق الملبس.

فعندما أكون في خارج المحل يكون هندامي دائمًا كما ينبغي إذ يسود الانسجام بين رباط العنق والجوارب والمنديل. أما في المحل فإني أرتدي ثوبًا للعمل ذا بياض يرجح أن يتصف به ثوب الجراح لا ثوب الحلاق فلا غرو إذن إن كنت بهذه المميزات موفقًا مع النساء. ولما كان توفيقي هذا لا يفتأ يلازمني فقد أصبح من عادتي إذا ما جذبتني امرأة أن أنظر إليها في إلحاح وإيحاء نظرات تقدر بمئات المجاملات. فإذا ما حاولت التقرب منها بعد هذه النظرات الطويلة المتعنة وجدت الثمرة ناضجة. فلا يبقى أمامي إلا أن أمد يدي والتقطها.

ولم يكن في المحل من أخشاه فيما يخص آيول أكثر من آماتو. فلم يكن

وسيمًا ولم يكن يثير الاهتمام ولكنه كان صغير السن. أم جيوسبي فلم أكن أقيم له وزنًا لأنه كان يكبرني سنًا كما قلت فضلاً عن أنه قبيحًا حقة على صورة لا تبعث على الأمل مطلقًا. وكانت "أيول" تجلس طيلة الوقت إلى منضدة التدريم الصغيرة في إحدى زوايا المحل وقد أغراها الزهو بسبب ما تشعر من سأم وجمود. كانت تستغرق في قراءة الجريدتين أو الثلاثة الخاصة بالمحل ثم تعود إلى قراءتها من جديد أو تأخذ في تدريم أظافرها وهي في انتظار أن تؤدي ذلك لعميلاتها.

ظللت أنظر إليها دوامًا مدفوعًا بفطرتي وأنا لا أكاد أرغب في ذلك فكان يأتي العميل ويجلس في المقعد فأتناول منشفة أنشرها بحركة واحدة رشيقة ملقيًا إليها في نفس الوقت بنظرة متمهلة. أو أجدني أثنا غسل شعر أحد العملاء وأنا أدلك له رأسه الغارق في الصابون بكلتا يدي معاودًا النظر إليها في بطء وأناة. ثم أراني مرة أخرى وأنا أسوي شعر أحد العملاء بطرف المقص ملقيًا إليها بنظرة كلما قصصت به قصات أربع. أو كنت إذا ما تحركت بطريقتها المتكاسلة لتأتي بإحدى الأدوات من الصوان أتباعها بعيني في المرآة.

ويجب أن أعترف بأن آيول كانت بعد ما تكون عن خفة الحركة أو الاستحياء بل كانت على العكس لها تعبير حذر متحفظ بليد كالهرة الناعسة. ولكنها لم تلبث تدريجيًا أن أدركت أولاً أنني كنت أنظر إليها. ثم ارتضت هذه الحقيقة. وفي النهاية أخذت تبادلني النظرات دون أي أثر للمكر أو الدهاء لأنها كانت لا تعرفه. بل كانت تنظر في ارتباك وتأن ولكنها كانت نظرات واضحًا تمامًا لا يخطئها أحد.

عندئذ خيل إلى أن الثمرة قد نضجت كما يقال. وفي أحد أيام السبت دعوتها إلى الاستحمام في أوستيا بعد ظهر يوم الأحد. فقبلت في الحال قائلة مع ذلك إنني لا يجب أن أنتقد بدلة استحمامها. فقد بدنت قليلاً وضاق جسدها إلى حد ما ببدلة الاستحمام التي لم تملك غيرها. بل إنها قالت في الواقع دون أثر للحياء أو الخجل – "لقد ترهلت قليلاً من كثرة الجلوس بلا حركة طول بقائي في المحل".

كانت هذه العبارة تدل على أنها لا تعرف المكر. فأعجبت بها لذلك. واتفقنا على اللقاء في اليوم التالي في محطة سان باولو. وحرصا على التأنق في زينتي قبل القيام بالرحلة. فحلقت ذقني ووضعت بعض مسحوق الطلق على وجنتي. ومشطت شعري بمشط حاد لأزيل كل أثر لقشرة الرأس. وضمخت رأسي ومنديلي بقليل من عطر البنفسج. وارتديت قميصًا ذا ياقة مفتوحة وسترة صيفية وسراويل بيضاء. وكانت أيول غاية في المواظبة. ففي تمام الساعة الثانية رأيتها قادمة وسط زحام المسافرين للنزهة. وكانت متشحة بالثياب البيضاء من أعلى إلى أسفل وقد بدت قصيرة إلى حد ما مع ميل إلى الضخامة ولكنها كانت مع ذلك صغيرة جذابة. قالت وهي تحييني – " يا له من زحام! أخشى أننا سنضطر إلى الوقوف طوال الطريق".

ولما كنت شهمًا بطبيعتي فقد أجبتها بأني سأجد لها مقعدًا وإن ما عليها إلا أن تعهد إلي بهذه المهمة. وفي أثناء ذلك كان القطار قد دخل المحطة وتحرك زحام الواقفين على الرصيف حركة مذعورة وكأن فرقة من الخيالة قد هاجمتهم فصاح الجميع وراح كل منهم ينادي الآخر. وألقيت بنفسي إلى الأمام فتشبثت بأحد الأبواب مرتفعًا عن الزحام وأوشكت على الدخول في

القطار عندما دفعني شاب أسمر محاولاً أن يتقدمني فدفعته أنا كذلك وتقدمته فجذبني من كمي ولكنني لكزته بمرفقي في بطنه فتخلصت منه وألقيت بنفسي داخل أحد الصالونات.

ولكنني كنت قد أضعت الوقت مع هذا الوغد الصغير وكان الصالون قد امتلأ بالناس فيما عدا مقعد واحد. فاندفعت نحوه واندفع هو أيضًا. وفي نفس اللحظة تقريبًا التي وضعت فيها بدلة استحمامي لحجز المحل وضع سترته للاحتفاظ به. ثم واجه كل منا الآخر فقلت: لقد سبقتك إلى هنا". قال: "من قال هذا". وفي تلك اللحظة وصلت أيول وجلست دون أي تردد قائلة: "شكرًا يا لويجي" فالتقط الشاب سترته ثم تردد قليلاً ولكنه ما أن رأى أنه لا يمكنه طرد أيول حتى ذهب قائلاً في صوت مرتفع: "أيها الأحمق المسن".

وما لبث أن تحرك القطار في الحال وبقيت أنا واقفًا بالقرب من أيول متعلقًا برأس أحد الأبواب الخشبية. ولكنني وقتذاك كنت قد فقدت كل حماسي وكنت أتمنى لو نزلت من القطار وعدت إلى المنزل. فقد جاءتني هذه الكلمات "الأحمق المسن" تمامًا في اللحظة التي لم أكن أتوقعها فيها. وفكرت أن هناك أحساسين مختلفين وراء كلمات الشاب. فقد انحصرت الإهانة في كلمة "أحمق" ولم يكن في ذلك ضرر ما. إذ أنه رماني بالحمق لأنه قصد مضايقتي. أما كلمة "مسن" فإنه لم ينطق بها بقصد إهانتي، بل قالها كحقيقة غنية عن البيان. تمامًا مثلما يقول لو فرض وكنت في نظره في الواقع كنا كنت في نظر الجميع بما في ذلك آيول رجلاً مسنًا.

ولم يكن يهم مطلقًا أن يظن بي الحماقة ما دامت آيول تعدني ذكيًا، فربما كان من غير الضروري أن تأخذ آيول المقعد. ومع ذلك فربما تخلى لي عنه الشاب، احترامًا لسني. وقد أيد هذا رجل كان يجلس في مواجهة آيول وكان قد شهد ما حدث فقال: "يا له من شاب وقح.. كان ينبغي أن يتخلى لك عنه احترامًا لسنك إن لم يكن لأي سبب آخر".

فعراني الارتباك وسرت في بدني القشعريرة. ورحت أرفع يدي إلى وجهي من وقت لآخر وكأنني أحاول أن أتحقق من سني بلمسات أصابعي لعدم وجود مرآة.

وكانت آيول بالطبع لا تعي شيئًا مما حدث. قالت لي ونحن في منتصف الطريق إلى أوستيا: "يؤسفني اضطرارك إلى الوقوف". فلم أتمالك نفسي من أن أجيبها قائلاً: "إني أعلم أنني رجل مسن ولكنني لست مسنًا على صورة أعجز معها عن الوقوف نصف ساعة أو نحو ذلك وكان يراودني بعض الأمل في أن تجيبني قائلة: "لو يجي.. أنت مسن؟ ماذا تقصد"؟ ولكن تلك المخلوقة البليدة بدلاً من ذلك لم تحر جوابًا قط. فاقتنعت بأنني قلت الحقيقة.

وفي أوستيا خلعت هي ملابسها أولاً وخرجت من الكابين في ثوب ضاق به جسدها حتى أوشك أن يفزر. وكان بدنها قويًا أبيض غضًا كما كان يتفجر شبابًا على صورة تثير الغضب حقًا في النفوس. ودخلت أنا بدوري الكابين حيث بادرت بالذهاب لأنظر إلى صورتي في المرآة الصغيرة المكسورة المعلقة على الحائط لا شك إنني كنت مسنًا: ولكن كيف حدث إنني لم أدرك هذا؟ وبنظرة واحدة رأيت عينين بلا بريق تحيط بهما الغضون وشعرًا ممتلئًا بالخيوط

البيضاء وبشرة مترهلة على الوجنتين وأسنانًا صفراء. وخجلت من قميصي المفتوح عند العنق وهو زي "صبياني" للغاية فقد كشف عن عنقي بأكمله فظهرت للعيان طيات متدلية من الجلد فوق قصبة الرئة. وخلعت ملابسي.

وعندما انحنيت لأرتدي لباس البحر برز كرشي ثم عاد إلى الهبوط مرة أخرى كحقيبة فرغت من الهواء ورحت أردد محدثًا نفسي في غضب قائلاً: "أيها الأحمق المسن". وخطر لي أن تلك كانت مفاجآت فقد كنت اعتقد قبل ذلك بساعة واحدة أن لي من شبابي ما يمكنني من القيام بدور الشهامة مع آيول. ولكنني عندئذ بفضل هاتين الكلمتين رأيت إنني أبلغ من السن ما يجعلني أبًا لها. وعراني الخجل من طول النظر إليها في المجل ومن دعوتها للنزهة. وتساءلت ماذا يمكن أن يكون رأيها في وكيف كنت أبدو في نظرها!

وعرفت بعد ذلك رأيها في —كنا نقف متشبثين بحبل النجاة وقد استسلمنا للأمواج التي راحت تتكسر فوق رأسينا فقد كان البحر مضطربًا. وكانت كل موجة تذهب بأنفاسي فحدثت نفسي قائلاً: "إني ألهث على هذه الصورة لكبر سني". أما هي فكانت تصيح قائلة وهي في قمة السعادة: "أتعلم يا لويجي أنني ما كنت أظن قط أنك رياضي إلى هذا الحد"؟ فسألتها قائلاً: "لماذا؟ وماذا كان رأيك في"؟ فأجابت قائلة: "حسنًا. إن الرجال في مثل سنك لا يحبون عادة النزول إلى البحر.. بل الشباب فقط..".

وعندئذ تكسرت فوقنا موجة عاتية مزبدة ألقت بي فوق آيول التي تشبثت بذراعها لأحفظ توازني. وكانت ذراعًا لدنة ممتلئة ذات بشرة مرنة غضة. وصحت فيها قائلاً وفمي لا يزال مملوءة بالماء الملح: "أنا أبلغ من

السن ما يجعلني أبًا لك". فضحكت وهي واقفة في وسط الزبد الفائر قائلة: "لا لست أبًا لي بل لتقل مثلاً – عمًا لي". وعندما انتهينا من حمامنا كنت لا أقوى مطلقًا على الكلام لما عراني من ارتباك وخجل. فقد شعرت وكأن في فمي فخًا أفلت بابه فانطبق مغلقًا وإنه يحتاج إلى رافعة لتفتحه مرة أخرى.

سارت أيول أمامي وهي تجذب ثوب البحر لتستر فخذيها وصدرها إذ إنه بعد أن أبتل بالماء صار فاضحًا للغاية. ثم ألقت بنفسها على الشاطئ متمرغة في الرمل الذي لم يكن يلتصق بها بل راح ينزلق عن بدنها اللدن في قطع مبتلة، وجلست بجانبها معقود اللسان مشلول القوي لا أستطيع كلامًا أو حراكًا. ولعل أيول التي تفوق الخرتيت بلادة قد لاحظت ما أنا فيه من هم وحزن لأنها سألتني بغتة عما إذا كنت أشكو من شيء.

فقلت: "لقد كنت أفكر فيك. فأينا تفضلين في المحل أماتوا أم جيوسبي أم أنا"؟ فأجابت قائلة في صدق بعد فترة طويلة من التفكير: "لماذا؟ إني أحب ثلاثتكم جميعًا".ولكنني ألححت قائلاً: "لا شك أن أماتو صغير السن". فأجابتني قائلة: "نعم إنه شاب". ثم لم ألبث أن أردفت قائلاً:

– أعتقد أنه مغرم بك فأجابتني قائلة: حقًا؟ ولكنني لم ألحظ ذلك. كانت تبدو شاردة الذهن وكأنها مشغولة بشيء ما. ثم قالت في النهاية – أنا في مأزق يا لوجي – فقد أنفتق ثوبي عند الظهر.. فلتعطني المنشفة لأنني يجب أن أذهب لارتدي ملابسي وأصارحكم بأنني سررت لهذه الكارثة. فناولتها المنشفة التي حزمت بها ردفيها ثم انطلقت تجري نحو الكابين. وبعد مضي نصف ساعة كنا نركب القطار في صالون خال من الناس.

وكنت قد وثقت ياقة قميصي المفتوحة وأنا أحدث نفسي قائلاً أن شيء حينئذ قد انتهى بالنسبة لي وأنني رجل مسن.

وأقسمت في ذلك اليوم أنني لن أنظر مرة أخرى إلى أيول ولا إلى آية امرأة أخرى وحافظت على كلمتي. وبدا لي أنها دهشت لذلك إلى حد ما وأنها كانت أحيانًا تحملق نحوي في ملامة وعتاب ولكن ربما كان هذا ظنًا فحسب، ومضى شهر ولم أتحدث إليها خلاله أكثر من أربع أو خمس مرات. وفي أثناء ذلك كانت قد عقدت أواصر الصداقة مع جيوسبي بصفة خاصة.

ولكنه كان مع ذلك يسلك نحوها سلوك الأب تمامًا. فقد اتسم أسلوبه بالطيبة والجد ولم يكن به أقل أثر للمغازلة أو المداعبة. وشعرت أنني أكبر سنًا مني في أي وقت مضى. وواصلت عملي في قص الشعر وحلق الذقون وتقبل الهبات دون أن أنبس ببنت شفة.

وذات يوم في موعد غلق المحل كنت أخلع ثوب العمل في غرفة المخزن الصغيرة خلف المحل عندما أعلن صاحب المحل وهو رجل طيب القلب قائلاً: والآن إذا لم تكن لديكم ارتباطات هذا المساء فلنتناول العشاء سويًا.. إني أدعوكم جميعًا.. فقد خطبت أيول لجيوسبي فنظرت إلى داخل المحل حيث كانت آيول تبتسم من الجانب الآخر وهو ينظف إحدى الموسيات. فشعرت في الحال براحة عظيمة فقد كان جيوسبي يكبرني سنًا كما كان قبيحًا ومع ذلك فقد فضلت آيول جيوسبي على آماتو. فاندفعت نحو جيوسبي مادا ذراعي وأنا أصيح قائلاً: أقدم لك تهنئاتي بل أحر التهنئات. ثم عانقت آيول وقبلتها على وجنتيها وكنت في الواقع من بيت الثلاثة الذين يعملون في المحل أسعدهم حالا.

وكان اليوم التالي هو أحد. فخرجت للنزهة بعد الظهر. فإذا بي أدرك وأنا أسير في طريقي إنني أخذت أنظر إلى النساء من جديد كما كنت أفعل في الماضي بل كنت أنظر إليهن فرادي أي كل على حدة لا من الإمام فحسب بل من الخلف أيضًا.

المنظار

كان السبب في تسمية الخياطة باسم "نسيولا" يرجع لكون "نسيولا معناها المشملا" لقمائنها واختلاط الصفرة بالسواد في وجهها تمامًا كالمشملا وقت نضوجها. فكانت عيناها وما يحيط بهما من الهالات وحاجباها وشارباها الصغيران كلها سوداء بينما أصفرت وجنتاها وجبهتها وأنفها.

وكانت نسيولا في هندامها تشبه دمية مصنوعة من الخرق البالية التي يجرها الأطفال على الأرض منكفئة على وجهها. فكانت ملابسها محزومة في أحكام حول بدنها بينما تكشف تنورتها القصيرة عن ساقيها المتورمتين.

كانت نسيولا تعمل في منزلها بالطابق الثاني في شارع ديلارانشيو وكانت بشقتها ثلاث غرف، أحداها للنوم وبها فراش كبير يسع شخصين تحتشد حولها من جميع الجوانب على صورة تكاد تحول دون الحركة، خزانة للثياب بها إدراج وسطح رخامي وصوان للملابس ومرآة ومنضدتان صغيرتان بجانب الفراش ومنضدة أخرى كبيرة ومقاعد، وكانت هناك غرفة أخرى صغيرة لقياس الثياب وإعدادها وقد خلت من كل شيء سوى مرآة ثلاثية كبيرة، وأخيرًا غرفة ثالثة صغيرة كان ينام فيها ابنها ناتال تؤدي إلى شرفة صغيرة مطلة على الفناء وتقع بين دورة المياه الشبيهة بالصندوق وبين المطبخ الصغير.

وكانت نسيولا تعمل في غرفة النوم وهي جالسة في مقعد من الصفصاف ذي مسندين كمقاعد الأطفال وضع في فرجة النافذة. ولا يستطيع الداخل إلى الغرفة أن يراها لأنها كانت تجلس في داخل تلك الفرجة بين الستار

والنافذة. وكانت الستار التي طرزت جميعها بصور الطيور وسلال الزهور مسدلة دائمًا. وكانت في داخل الفرجة بالإضافة إلى مقعدها الصغير منضدة للعمل وقفص به عصفور كناريا. وكانت عندما تقوم بالتصميم أو القص تبسط القماش على الفراش ثم تعتليه من فوق غطائه حيث تجث على ركبتيها وتدور خول الثوب أثناء عملها أما القياس فكانت تقوم به كما قلت في الغرفة الصغيرة المجاورة حيث كانت العميلة تخلع ملابسها تقف أمام المرآة الكبيرة بينما ترتقي نسيولا مقعدًا صغيرًا بلا ظهر وفي فمها إبرة أو مشبك وبذلك تتمكن من بلوغ الارتفاع المناسب. وكانت نسيولا لا تتوقف قط عن الثرثرة في سرعة بالغة وبلهجة سرية جدية أثناء قياسها الثوب على صاحبته.

وينصب معظم حديثها على مجاملات تزجيها لعميلتها في لهجة خفيضة إلى حد ما ممتدحة بياض بشرتها وجمال شعرها ولون عينيها ومعالم جسدها. بل كان يبلغ بها الأمر أن تستشهد بابنها إن كانت العميلة فاتنة حقًا قائلة: "تعال هنا يا ناتال ولتلق نظرة ثم قل لي إن كانت هذه هي مريم العذراء وقد هبطت على الأرض من جديد".

ولم تكن تحتج العميلات على ذلك لأنهن كن في معظم الحيان من بنات الحي الفقيرات وخاصة لأن ناتال لم يكن رجلاً يبعث على الخوف والرهبة. وكانت هذه المجاملات على أية حال صادقة للغاية مما ساعد نسيولا على اكتساب عدد كبير من العميلات. فقد كانت تأتي إليها فتيات كثيرات ممن يسكن العمارة نفسها أو المنازل المجاورة.

إني أعرف كل هذه الأشياء لأنني كثيرًا ما كنت أتردد على منزل نسيولا

خلال الفترة التي كنت فيها صديقًا لناتال وقتذاك يبحث عن عمل. وقد عثر فعلاً على عمل في محل لتقوية المطاط بالكبريت حيث كنت أنا أعمل ميكانيكيًا. ولكنه قال لي بعد مضي شهرين إن ذلك لم يكن طريق النجاح ثم ترك المحل وعاد إلى المنزل.. وكان لعبارته هذه عن النجاح وقع في نفسي لأنني لم أتخيل قط أن تقوية المطاط ستؤدي إلى أي نوع من النجاح سوى كسب القوت فحسب. لهذا – ولما قاله لي من أشياء أخرى كذلك استشارت فضولي – فقد استمرت علاقتي به مع أنني أصارحكم بأنني لم أكن أجده محببًا إلى نفسي بصورة خاصة.

وكان ناتال من الناحية البدنية ضخم الجثة مكتنزًا ذا وجه منتفخ عديم اللون شاحبًا بليد المظهر جعلني لسبب ما أتمثل سمكة لها وجنتان. ولكنه لما كان يضع على عينيه منظارًا سميكًا مستديرًا ويكسو وجهه تعبير جاد مرسوم فقد أطلقوا عليه لقب "الأستاذ" مع إنني لا أعتقد أنه تجاوز في تعليمه المدرسة الابتدائية كان وجهه هذا ورزانته يوحيان بالثقة. وفي الواقع فإن الأعمال التي كان قد حصل عليها قبل مجيئه إلى محل تقوية المطاط لم تكن عمالية بقدر ما كانت كتابية – كساع أو حارس أو مخزنجي أو ناسخ. كانت كلها في الواقع أعمالاً أساسها الثقة التي يوحي بها وجهه كبدر التئم يعلوه منظار.

ولكن هنا لعب الشيطان دوره: فقد ناتال كل هذه الأعمال لأنه كان فيما يبدو يرتكب في لحظة ما خطأ على جانب كبير من الخطورة مثل الاختلاس أو الغش أو السرقة. وكانت الأمور على قدر إدراكي تسير دائمًا بنفس الطريقة. فكان صاحب العمل في أول الأمر يوليه ثقته ويقسم على نزاهته ويود لو أعطاه مفاتيح الخزانة.

وإذا به فجأة – ولا يعلم أحد بالضبط كيف كان يحدث ذلك يفصله من عمله– قائلاً له على وجه التأكيد العبارة التالية التي كانت تتكرر هي نفسها في مثل هذه المناسبة "اذهب ولا تريني وجهك مطلقًا مرة أخرى.. واشكر لأمك هذه المرأة القديسة إننا لا نبلغ عنك الشرطة" هذه الأشياء كنت أعرفها ولا أعرفها لأنه لم يكن يتسرب من أسرارهم شيء حتى أثناء زيارتهم في منزلهم. وكانت نسيولا لا تفتأ تتحرك وتعمل بينما تطلق تنهيدة بين الحين والحين هي كل ما كانت تبيحه لنفسها على سبيل الشكوى. أما هو فإنه ما كان يبالي حتى لو بصقوا في وجهه.

وقصارى القول إنهما كان يحافظان على المظهر. ومع ذلك فإنه لا يسعنا إلا أن نتصورها عندما كانت تنفرد به وقد أطلقت العنان لدموعها معبرة عن يأسها منه فيعدها بأن يبدأ صفحة جديدة في حياته. ولكنه لا يكاد يجد عملاً جديدًا حتى يعود سيرته الأولى.

وكان ناتال لا يبدو على جانب كبيرة من القوة. فقد كان متوسط القامة مكتنزًا عليه سيماء المتخم بالطعام وكانت ملابسه تبدو دائمًا ضيقة محكمة للغاية. ولكنه كان في الواقع قويًا كالثور فقد رأيته في المحل ذات مرة وهو يرفع سيارة صغيرة. كانت هذه القوة التي لا ريب فيها ترمز على صورة ما إلى حقيقة شخصيته التي كانت تختفي وراء مظهره الهادئ الوقور.

لقد كان في الواقع دجالاً دعيًا، فقد كان في مظهره يختلف عنه في جوهره. وحينذاك كانت أمه وحدها هي التي تعرف حقيقته. فقد تفتحت عيناها منذ أن ارتكب فعلته في نابولي قبل ذلك بضع سنوات. ففي ذلك

الوقت عندما كانت رحى الحرب لا تزال دائرة في الشمال تمكن ناتال الذي لم يكن قد انطلق بعد من عقاله وكان لا يزال يقود أمه من أنفها بوجه الكسير الذليل ومنظاره، تمكن من إقناع أمه وبعض صديقاتها بائتمانه على مبلغ من النقود يمكنه به أن يذهب إلى نابولي حيث يشتري كمية من أحذية النساء.

ولما كان هناك نقص في إنتاج هذه السلعة في روما فإنهن يبعنها بثمن مرتفع وكانت هذه فرصة لإثرائهن جميعًا. ولسبب أو آخر انتشرت شائعة في العمارة كلها بأن ناتال كان يتمتع بموهبة طبيعية في الأعمال التجارية فناله شيء من جميع هؤلاء النسوة الفقيرات. أما أمه فقد أعطته كل مدخراتها. وذهب ناتال إلى نابولي بالسيارة ولكنه لم يعد بالأحذية بل عاد في الحقيقة عاريًا من سترته وروى أنه عندما بلغ "فورميا" هاجمته عصابة من قطاع الطرق.

ومع ذلك، فإنه لما يؤسف له أنه لم تمض فترة قصيرة حتى أطلعهم على الحقيقة سائق السيارة التي ذهب بها ناتال إلى نابولي. ففي نابولي التقى ناتال ببعض أهالي المدينة من المقامرين المتهورين. فجلسوا جميعًا إلى مائدة القمار وخسر. وقيل لي أن هذا كله أدى إلى مرض نسيولا وخاصة كما قالت بسبب صديقاتها اللائي أولينها ثقتهن. فصممت على أن تسدد لهن نقودهن وجاهدت لتفعل ذلك خلال سنوات عدة. وكان ناتال من الناحية الأخرى هادئ البال تمامًا وكأن شيئًا لم يحدث. ولكنني أعتقد أمه لم تعد تثق به مطلقًا.

كان ناتال إذن مقامرًا لا حبًا في المقامرة بل لأنه أدرك في مبدأ حياته كما قال أن الفقير لا يمكنه أن يثري عن طريق العمل النزيه ولا سبيل إلى ارتفاعه فوق مستوى الرجل الفقير إلا عن طريق الحظ وفضلاً عن ذلك،

فقد كانت له آراؤه الخاصة عن الحياة والنجاح في الحياة وكان يقوم بشرحها وتفسيرها عن طيب خاطر. ولقد استمرت علاقتي به كما قلت من قبل حتى بعد مغادرته محل تقوية المطاط وذلك لأن مبادئه كانت تثير فضولي ولأن هذا اللص الذي كان يبدو كالأستاذ وهذا الشاب الذي كان يبدو كالكهل وهذا الجاهل الغبي الذي لم يتوقف قط المناداة بمبادئه كما لو كان من العلماء. كان يغضبني ويستعبدني.

كان ناتال يزعم أن كل شيء في الحياة يعتمد على الحظ وأن الحظ لا يواتي إلا من ينتهزه وإن الحظ كذلك في حاجة إلى العون، وإن كل شيء يتوقف على الاستعداد والسرعة وعلى انتهاز اللحظة المناسبة ثم توجيه الضربة. ولكنه مما يؤسف له إنه وهو في حماسه واضطرابه الجنوني لتوجيه ضربته أهمل كل سبل الدهاء مستسلمًا لضربته بكليته. كان ناتال يردد هذه الأشياء كما لو كانت حقيقة منزلة من السماء محملقًا في ثبات من خلال منظاره ومؤكدًا إياها على صورة تثير الدهشة حقًا وكأنه قد استطاع فعلاً أن يمسك بتلابيب الحظ ويحتفظ به إلى الأبد طبقًا لأقواله لا ذلك المخلوق التعس الذي كأنه. كما كان يثير غضبي فقد حدث في إحدى المناسبات إنني عجزت عن مقاومة الإغراء فقاطعته قائلاً: "ولكنك أنت.. ماذا عنك"؟ ولم يتكدر لذلك قط لأنه كان يتميز بوجه قد من نحاس فائق الجودة، بل هز كتفيه وقال: "وما علاقة ذلك بما أقول؟ فإن روما لم تبن في يوم واحد".

وفي تلك الأثناء بينما كان ينتظر بناء روما ظل يواصل بحثه عن الحظ فكان يقامر حيثما وجد ومع أي شخص دون تمييز، ولكنه كان يلعب الورق في معظم الأحيان في محل للبن غير بعيد عن منزله ويتم ذلك ليلاً

بعد موعد الغلق في غرفة خلف المحل عندما يكون بائع اللبن قد أنزل التندة الأسطوانية ورش الأرض بنشارة الخشب ونظف منضدة العرض. كان يلعب مع صاحب المحل والساقي ورجل آخر. هل كان يكسب؟ أم يخسر؟ ربما كان يكسب أحيانًا وإلا فلا يمكنني أن أفهم كيف كان يحصل على النقود ليواصل اللعب.

ولكنه خسر في النهاية، لأنه هو رجل فقير ابن خياطة كان كالقدر الخزفي أمام قدور من حديد فقد كان الثلاثة الآخرون يملكون من النقود أكثر مما يملك هو. ولما لم يكن يدري ماذا يفعل لسد الثغرات في حالة الخسارة فكان يخون الثقة التي يوليها إياه صاحب العمل، فيختلس الأشياء ويبيعها. وهذا هو السر كله فيما كان يقع من حوادث الفصل الفجائية مصحوبة بتلك الكلمات الوداعية التي كانت كفيلة بأن تكسو وجهه الزنجي بحمرة الخجل ولكنها مع ذلك لم تكن تؤثر فيه بأية صورة من الصور. ولم تحذ أمه التي كانت تعلم ذلك حق العلم حذو كثير من الأمهات فتقول له: "لا تجر وراء النساء" أو "لا تضع وقتك في اللهو" بل على العكس من ذلك تقول له في بساطة: "دع هذا الورق وشأنه يا شعاع النور في حياتي".

كانت تدعوه باسم ولدها الذهبي وشعاع النور في حياتها لأنه كان رغم كل شيء ومع علمها بأنه خائن وبأنه لص فوق ذلك فقد كان لا يزال هو ابنها وكانت تأمل أن يأتي يوم تصلح فيه ما أعوج من خلقه ويسير في الطريق المستقيم ويصبح عاملاً منتظمًا في حياته.

هكذا كانت تأمل ولكن ولدها الذهبي وشعاع النور في حياتها انتهز

فرصة خروجها ذات صباح لتقوم بتسليم ثوب إلى صاحبته وتناول قضيبًا من حديد فتح به عنوة قفل الصوان واختطف كل ما استطاع أن يعثر عليه من نقود. وأعتقد أنه قال لأمه فيما بعد أنه كان يقصد أن يمارس لعب الورق شوطًا واحدًا فقط يرد لها بعده النقود مضاعفة مائة مرة. أما فيما يخص النقود فأعتقد أن نسيولا قد سلمت بخسارتها لكثرة ما ألفت من هذه الكوارث. ولكنها فيما يخص القضيب الحديدي – فقد أحست وكأنه قد أغمده في قلبها. وحلت بها الكآبة منذ ذلك اليوم فقد أقلعت عن إزجاء المجاملات لعميلاتها عند ارتقائها المقعد لتقيس لهن ثيابهن.

وذات يوم عاد ناتال إلى المنزل حوالي المساء وقال لأمه أنه كان يبحث عن عمل. كان بدون منظاره وعلل ذلك بأنه تركه في أحد المقاهي حيث كان قد خلعه ليقرأ الجريدة. فقد كان من عادته دائمًا أن يخلع منظاره ويضعه جانبًا عندما يضطر إلى القيام بشيء يتطلب عناية خاصة أما خوفًا عليه من الكسر أو لأنه كان بدونه يحسن الرؤية في المدى القريب.

كانت أمه قد أعدت عشاءه كالمعتاد ووضعته على منضدة العمل الصغيرة في فرجة النافذة في غرفة النوم. فالتهم صحفة من الشعرية بالأنشوجا وصحفة من البنجر المقلي ورغيفًا طويلاً من الخبز. وفي الواقع كان يشعر بجوع شديد وصرحت نسيولا فيما أنها لم تره قط يأكل بمثل هذه الشهية. وبعد العشاء أشعل ناتال سيجارة ثم نام بعد ذلك قرابة الساعة على الفراش الكبير المزدوج. وعندما استيقظ من نومه طلب بعض النقود من نسيولا ثم ذهب إلى السينما القريبة من المنزل حيث كان يعرض أحد الأفلام الأمريكية الهزلية وكنت أنا نفسي في السينما ورأيته جالسًا في الصف الأول بدون

منظاره وكان يضحك من وقت لآخر بينما يهتز جسمه كله وهو منكمش في مقعده وكأنه قد انتابته نوبة من السعال.

وقصارى القول أنه عندما غادر السينما قبض عليه رجال الشرطة – الذين كانوا قد ذهبوا إلى منزله – وحملوه إلى مركز الشرطة. وفي الصباح التالي نشرت الخبر جميع الصحف. فقد ذهب ناتال لدفع الإيجار وانتهز الفرصة لقتل صاحب المنزل المسن والمصاحب بداء النقرس وذلك بأن ضربه على رأس بمطرقة.

ولو لم يكن دقيقًا في عمله على هذه الصورة لكان من المحتمل ألا يعثروا عليه قط ولكنه لكي يحسن استخدام المطرقة بمزيد من المهارة فقد خلع منظاره في أول الأمر ووضعه على قاعدة النافذة. ثم نسيه أثناء اضطرابه في تلك اللحظة فعثر عليه رجال الشرطة. وفي ذلك الصباح وجهت أمه تلك المرأة المسكينة التي لم تكن تظن أنه يمكن في انتظارك وقتذاك مزيد من المفاجآت بكبرى المفاجآت جميعًا.

ولست أدري كيف كانت حالتها خلال الأيام الأولى عندما كانت كل الصحف تتحدث عنها وعن ابنها. لكن المعتقد أنها بعد ذلك التمست من السيدة العذراء رعايتها وحمايتها. فقد كانت امرأة دينية تقية. وإن السيدة العذراء قد وهبتها الصفح والشجاعة لمواصلة حياتها. ومن المؤكد أنه بعد مضي وقت قصير على وقوع الجريمة ذهبت نسيولا لزيارة ابنها في السجن كان قد أعطى منصبًا محل ثقة في مكتب مستشفى السجن وذلك بفضل أسلوبه الجاد وسلوكه الحسن.

ماريو

ذات صباح استيقظت من نومي مبكرًا للغاية بينما كانت "فيلومينا" لا تزال نائمة وأخذت حقيبة أدواتي ثم تسللت إلى خارج المنزل في هدوء وذهبت إلى مونت باريولي بشارع "جرامشي" حيث كان علي أن أصلح مرجلاً يرشح منه الماء. كم من الوقت استغرق مني القيام بهذا الترميم؟ ساعتين بالطبع لأنني اضطررت إلى خلع الأنبوبة وتركيبها مرة أخرى.

وعندما انتهيت من عملي عدت مستقلاً الأتوبيس والترام إلى شارع داي كوروناري، حيث كان يقوم منزلي ومحلي. والآن فلتسجلوا الزمن: فقد قضيت ساعتين في مونت باريولي ونصف ساعة للوصول إلى هناك ونصف ساعة للعودة، فيكون المجموع ثلاث ساعات وما ثلاث ساعات؟ أقول إما أن تكون مدة طويلة أو قصيرة حسب الظروف. لقد استغرق مني إصلاح أنبوبة من الرصاص ثلاث ساعات. ومن الناحية الأخرى فهناك شخص آخر.

ولكن فلنأخذ الأمور بترتيبها الصحيح. فبينما كنت أسير مسرعًا أسفل السور عند المنعطف المؤدي إلى شارع كوروناري سمعت شخصًا يناديني باسمي فاستدرت وهناك رأيت "فيد" صاحبة المنزل العجوز التي كانت تقيم في المنزل المواجه لنا. وكانت فيد تلك المرأة العجوز المسكينة قد تورمت ساقاها من النقرس حتى بدتا كساقي الفيل. كانت لاهثة الأنفاس تمامًا وهي تقول لي: "يا لها من شروق اليوم؟ هل أنت ذاهب عبر الطريق؟ هل عاونتني على حمل سلة المشتريات"؟

فأجابتها قائلاً إن ذلك يسرني. وتقلت حقيبة أدواتي إلى كتفي الأخرى ثم تناولت منها السلة، وأخذت تمشي بجانبي وهي تجر ساقيها وكأنهما عمودان من تحت معطفها الواسع. وبعد قليل سألتني قائلة: "وأين فيلومينا"؟

فأجبتها قائلاً:

– في المنزل. وإلا فأين يجب أن تكون؟

فقالت مطأطئة رأسها:

– نعم إني أفهم ذلك. فهي في المنزل بالطبع.

فسألتها لكي أقول شيئًا فحسب:

– ولماذا بالطبع؟

فقالت: بالطبع.. آه يا فتاي المسكين.

وبدأت أرتاب في الأمر. فسكت لحظة ثم سألتها قائلاً:

– ولماذا تقولين يا فتاي المسكين ؟

فقالت تلك المخلوقة العجوز القبيحة دون أن تنظر إلي:

– لأنني آسفة من أجلك.

– ماذا تعنين؟

– أعني أن الزمن قد تغير.. فالنساء اليوم لسن كما كن في أيامي.

– لماذا ؟

– ففي أيامي كان الرجل يستطيع أن يترك زوجته في المنزل وهو هادئ البال.. إذ أنه كان يجدها كما تركها.. أما اليوم..

– أما اليوم فماذا؟

– أما اليوم فليس الأمر كذلك.. حسنًا. حسنًا.. أعطني سلتي وشكرًا جزيلاً.

وتحولت بهجة ذلك الصباح الجميل كلها إلى سم في بدني. فجذبت منها السلة قائلاً: لن أعطيك إياها ما لم تفسري لي.. ما علاقة فيلومينا بكل هذا؟

فقالت:

– لست أدري شيئًا من ذلك. ولكن لقد أعذر من أنذر.

فصحت قائلاً:

–ولكن قولي ماذا فعلت فيلومينا؟

فأجابت قائلة:

– فلتسأل إدجيزا.

وعندئذ أمسكت السلة وانطلقت تمشي في خفة لم أكن أدري إنها قادرة عليها فقد أوشكت على الركض في معطفها الطويل الفضفاض.

وقررت أنه لا جدوى من العودة إلى المحل في تلك اللحظة واستدرت على عقبي وذهبت للبحث عن إدجيزا. وكانت أيضًا لحسن الحظ تقيم في شارع داي كوروناري. وقد كنت خطيبًا لآداجيزا قبل لقائي بفيلومينا. فظلت

عانسًا. وساورتني الشكوك في أن تكون هي التي اختلفت تلك القصة عن فيلومينا. فصعدت أربعة طوابق وطرقت الباب بقبضتي في عنف حتى كدت أهوى بها على وجهها إذ أنها أسرعت بفتح الباب. كانت تشمر عن ساعديها وقد أمسكت بمكنسة. فقالت في حدة شديدة – "جينو – ماذا تريد"؟

كانت آداجيزا فتاة صغيرة الحجم إلى حد ما – جذابة – ولكن رأسها كان أكبر قليلاً مما يجب وكان ذقنها بارزًا أكثر من المألوف بقليل.. وقد أطلق عليها بسبب ذقنها لقب "البنت البستوني". ولكنك لا يجب بالطبع أن تقول لها ذلك في وجهها. ولكنني كنت شديد السخط عليها حتى أنني قلت لها: "هل كنت أيتها البنت البستوني" التي تشيع عن فيلومينا أنها ترتكب أمورًا في المنزل لا يجب أن تأتيها أثناء وجودي في المحل؟

فثبتت على عينيها الغاضبتين قائلة:

– كنت تبغي فيلومينا.. وها هي الآن في حوزتك.

فدلفت إلى الداخل وأمسكت بها من ذراعها، ولكنني ما لبثت في الحال أن تركتها لأنها رمتني بنظرة يكاد يراودها الأمل. قلت:

– إذن فلقد كنت أنت التي فعلت هذا.

– لست أنا.. بل إنني لم أزد على ترديد ما سمعت.

– ومن ذا الذي سمعت منه؟

– جيانينا ؟

فلم أقل شيئًا واستدرت لانصرف. ولكنها أمسكت بي قائلة: وهي تنظر إلي في استفزاز:

– ولتكف عن دعوتي "البنت البستوني".

فأجبتها متخلصًا من قبضتها وهابطًا الدرج في اندفاع قائلاً:

– ماذا؟ أليس ذقنك كالجاروف؟

فصاحت خلفي قائلة وهي تتكئ على سور السلم:

– إن ذقنا كالجاروف لخير من الدياثة.

وعندئذ بدأت أشعر بالمرارة. لقد بدا لي من غير المحتمل أن تخدعني فيلومينا. فلقد بذلت لي بسخاء خلال تلك السنوات من زواجنا كل ألوان الحب والحنان. ولكن الغيرة ما أعجبها من عاكفة! لقد بدت لي تلك المظاهر وقتذاك على ضوء ما قالته فيد وآداجيزا دليلاً على الخيانة. حسنًا. حسنًا.. كانت جيانينا تعمل صرافة في مشرب قريب يقع في نفس الشارع. وكانت شقراء ضعيفة واهنة ذات شعر ناعم وعينين في زرقة الخزف وتتميز بالهدوء والتأني والروية؟ فاتجهت إلى الخزينة وهمست لها قائلاً: اخبريني هل أنت التي اختلقت تلك القصة عن فيلومينا من أنها تستضيف الناس في المنزل أثناء غيبتي؟

وكانت تقوم على خدمة أحد العملاء وهي تضغط على أزرار مسجل النقد ثم تسحب منه بطاقة معلنة دون أن ترفع صوتها قائلة: قهوتان.. ثم سألتني قائلة في هدوء :

– ماذا كنت تقول لي يا جينو؟

فأعدت عليها سؤالي وأعطت العميل ما تبقى له من النقود ثم أجابتني قائلة:

– جينو أتظن حقًا أنني اختلق قصة كهذه عن فيلومينا.. صديقتي المفضلة؟

– إذن فلابد أن آداجيزا قد تراءى لها ذلك في الحلم.

فصححت عبارتي قائلة:

–كلا. كلا.. إنها لم تحلم بذلك.. ولم يكن من نسيج خيالي بل إني رددته.

فلم أتمالك نفسي من أن أصيح قائلاً:

– ما أرقك من صديقة !

– ولكنني قلت أيضًا إنني لا أصدقه.. ولكن آداجيزا لم تخبرك بهذا بالطبع.

– حسنًا إذن فمن قال لك ذلك؟

– فنسنزينا.. لقد جاءت إلي خصيصًا من المغسل لتخبرني به.

فاندفعت إلى الخارج جون أن أودعها واتجهت رأسًا إلى المغسل. وما أنا نظرت إلى الداخل من عرض الطريق حتى أمكنني في الحال أن أرى فنسنزينا واقفة إلى المائدة تضغط بذراعيها على المكواة أثناء عملها. وهي فتاة صغيرة

رقيقة يبدو وجهها مضغوطًا كوجوه القطط كما كان شديد السمرة دافق الحيوية. وكنت أعلم أنها ضعيفة أمامي لميلها إلي. وبالفعل فإنني ما كدت أشير إليها بأصبعي حتى تركت المكواة في الحال وخرجت من المحل. وقالت يحدوها الأمل:

– جينو ما أجمل رؤيتك !

فأجبتها قائلاً: "والآن أيتها الساقطةَ أصحيح أنك تشيعين عن فيلومينا أنها تستضيف الرجال في المنزل أثناء وجودي في المحل"؟

فأجابتني قائلة وهي تتمايل من جانب إلى آخر واضعة يديها في جيبي وزرتها وقد خاب رجاؤها إلى حد ما:

–وهل يهمك أن تفعل ذلك ؟

فألححت قائلاً:

– أجيبني. هل أنت التي اختلقت هذه القصة الدنيئة الحقيرة؟

فقالت وهي تهز كتفيها – هه ما أشد غيرتك! يا إلهي! ألا يسمح للمرأة أن تتحدث حديثًا قصيرًا إلى أحد الأصدقاء.

– إذن فقد كنت أنت..

فقالت الفتاة الخبيثة فجأة:

– حقًا إني آسفة لك. لماذا تظن إنني أهتم بزوجتك؟ فأنا لم أختلق شيئًا.. إن آجنيز هي التي أخبرتني بذلك. بل إنها تعرف اسمه .

– وما اسمه إذن؟

– يحسن بك أن تسألها عنه.

عندئذ تأكل لي أن فيلومينا كانت تخدعني. فإنهم كانوا يعرفون عنه كل شيء حتى اسمه. وحدثت نفسي دون أن أدري قائلاً:

– إنه لمن حسن الحظ إنني لم أحمل أية أدوات ثقيلة في حقيبتي وإلا فربما فقدت صوابي وقتلتها" ولم استطع أن أقنع نفسي بما حدث: "فيلومينا زوجتي مع رجل آخر.." ودخلت محل التبغ حيث كانت آجنيز تبيع السجائر لأبيها. وقلت ملقيًا النقود على منضدة البيع: "علبتين من سجائر الناسيونالي.

وكانت آجنيز فتاة صغيرة في السابعة عشرة من عمرها تكسو رأسها غابة من الشعر القصير المجعد الجاف الذي كان يقف منتصبًا على رأسها. وكان وجهها منتفخًا شاحبًا لا لون له يكسوه مسحوق أحمر – أما عيناها فكانتا تشابهان في سوادهما ثمرتين من ثمار التعليق كنت أعرفها كما كان يعرفها بالفعل كل سكان شارع أي كوروناري. وكنت أعلم أيضًا كما كان يعلم الجميع أنها جشعة للغاية وإنها قادرة على بيع روحها في مقابل النقود. فانحنيت فوقها عندما سلمتني السجائر وسألتها قائلاً:

– أخبريني. ما اسمه؟

فأجابتني في دهشة قائلة:

– اسم من؟

– صديق زوجتي.

فنظرت إلي وكأنها مذعورة. فلابد أن وجهي كان يعلوه تعبير قبيح. فأسرعت قائلة: "لا أدري شيئًا عن ذلك".

فحاولت أن ابتسم قائلاً:

– هيا أخبريني. فالجميع يعلمون ذلك الآن. وأنا الوحيد الذي لا يعلم.

فحملقت في وهزت رأسها. فأردفت قائلاً:

– انظري. أن أخبرتني أعطيك هذه.

وأخرجت من جيبي الورقة ذات الألف ليرة التي تقاضيتها في مقابل ما قمت به من إصلاحات في ذلك الصباح.

وما أن رأت النقود حتى عراها الاضطراب وكأنني حدثت عن الحب فقد ارتعشت شفتها ونظرت حولها في جميع الاتجاهات ثم وضعت يدها على الورقة المالية قائلة في صوت خفيض – "ماريو".

– وكيف عرفت ذلك؟

– من بوابة المنزل حيث تقيم.

إذن فقد كان الأمر صحيحًا في الواقع. وكان أشبه بتحويل الماء من البارد إلى الساخن. فعندئذ كنا في داخل العمارة التي أسكنها. ولن نلبث أن نكون في داخل شقتي الخاصة. غادرت محل التبغ وأسرعت نحو المنزل. ولم تكن تزيد المسافة عن بضعة بيوت.

وظللت طيلة الوقت أردد قائلاً: "ماريو". وبينما كنت أردد الاسم مر أمام عيني جميع من أعرفهم باسم ماريو. ماريو بائع اللبن وماريو نجار الأثاث

وماريو بائع الخضراوات وماريو الجندي الذي صار عندئذ عاطلاً وماريو ابن جزار الجنازير وماريو وماريو وماريو.. فلا ريب أن روما تحوي مليونًا ممن يحملون هذا الاسم ولابد أن مائة منهم يقيمون في شارع داي كوروناري.

ودلفت إلى داخل المنزل حيث أقيم واتجهت رأسًا إلى غرفة البوابة. كانت عجوزًا غزيرة الشاربين مثل فيد وكانت تجلس منفرجة الساقين وقد وضعت مدفأة بين قدميها وفي حجرها كومة من السريس كانت تقوم بإعدادها. فأشرفت عليها برأسي عند الباب وسألتها قائلاً:

– هل أنت التي اختلقت تلك القصة عن فيلومينا من أنها تستضيف رجلا يدعى ماريو أثناء غيابي عن المنزل؟

فانزعجت وأجابتني قائلة في الحال:

– لم يختلق أحد شيئًا.. إن زوجتك هي التي أخبرتني بنفسها .

– فيلومينا؟

– نعم.. فقد قالت لي أن شابًا أوصافه كذا وكيت قادم لزيارتي وهو يدعى ماريو. فقد كان جينو في المنزل فلا تدعيه يصعد ولكنه إن لم يكن هناك فلتطلبي إليه المجيء.. وهو الآن هناك.

– هو الآن هناك؟

– نعم بلا شك... فقد صعد إلى الشقة منذ ساعة.

وهكذا لم يكن ماريو موجودًا فحسب بل كان ساعتئذ في الشقة مع فيلومينا وكان هناك منذ ساعة. فاندفعت نحو الدرج وركضت إلى الطابق

الثالث ثم طرقت الباب. وجاءت فيلومينا لتفتحه فلاحظت في الحال إنها هي التي عهدتها غاية في الدعة والهدوء كانت تبدو مذعورة. قلت: حسنًا. فإن ماريو يأتي لزيارتك أثناء غيابي.

فبدأت تقول:

– ولكن كيف بالله؟

فصحت قائلاً وأنا أدلف إلى الداخل:

– إني أعلم كل شيء عن ذلك.

ولكنها اعترضت طريقي:

– هدئي من روعك.. ولكن ماذا يهمك من هذا فلتعد بعد قليل؟

عندئذ لم يعد في وسعي أن أتمالك نفسي. فصفعتها على وجهها وصحت قائلاً:

– آه. إذن فهكذا الحال. أليس كذلك؟ فليس من المفروض أن يهمني الأمر؟

ثم نحيتها جانبًا وركضت إلى المطبخ.

فلتنزل اللعنة بثرثرة النساء ولتنزل اللعنة بالنساء جميعًا! فقد كان ماريو هناك بالفعل جالسًا إلى المائدة يحتسي القهوة. ولكنه لم يكن ماريو نجار الأثاث ولا ماريو بائع الخضراوات ولا ماريو ابن جزار الخنازير بل أنه لم يكن من بين أولئك الذين فكرت فيهم وأنا في طريقي إلى المنزل. ولكن ماريو هذا كان ببساطة شقيق فيلومينا الذي أودع السجن مدة سنتين لارتكابه جريمة

السرقة. ولما كنت أعلم أنه سيفرج عنه ذات يوم فقد قلت لها:

– والآن فلتعي ما أقول. فأنا لا أريده مطلقًا أن يدخل بيتي.. بل إنني لا أحب أن يذكر اسمه أمامي؟

ولكن الفتاة المسكينة لما كانت مغرمة بأخيها رغم أنه لص فقد قررت أن تراه أثناء غيابي عن المنزل. وما أن رآني ماريو في ثورة غضبي العنيف حتى نهض واقفًا على قدميه. فقلت له وأنا لاهث الأنفاس: آه أهلا بك يا ماريو.

فقال في ضعف ولين: إني راحل فلا تقلق.. إني راحل.. وعلى أية حال فماذا دهاك؟ فقد يتبادر إلى الذهن أنني مصاب بالطاعون.

وسمعت فيلومينا وهي تبكي في البهو فأحسست وقتذاك بالخجل مما فعلته. قلت في ارتباك: لا. لا. فلتبق. فلتبق اليوم.. فلتبق لتناول العشاء.. فلا ضير في هذا. أليس كذلك يا فيلومينا؟ وأردفت قائلاً وأنا أستدير نحوها عندما جاءت إلى الباب وهي تمسح عينيها: "لا ضير من أن يبقى ماريو لتناول العشاء؟

ولقد بذلا قصارى جهدي لوضع الأمور في نصابها, ثم دخلت غرفة النوم وناديت فلومينا حيث منحتها قبلة. وعاد الصفو بيننا. ومع ذلك فإن موضوع الثرثرة ما زال باقيًا. فترددت قليلاً ثم قلت لماريو: هيا يا ماريو.. تعال معي إلى المحل فقد يكلفك صاحب المحل بعمل ما. وتبعني إلى الخارج. وعندما بلغنا الدرج أردفت قائلاً:

– لا يعرفك أحد هنا.. ولتزعم أنك كنت تعمل في ميلان السنوات الأخيرة .. أفهمت؟

– حسنًا.

وهبطنا الدرج. وعندما بلغنا غرفة البوابة أخذته من ذراعه وقدمته إليها قائلاً:

– أقدمك إليك ماريو.. شقيق زوجتي.. لقد جاء لتوه من ميلان.. وسوف يمكث معنا هنا الآن.

– لشد ما يسرني ذلك.. إني واثقة..

فحدثت نفسي قائلاً ونحن في طريقنا إلى الشارع، إنه ليسرني أنا وحدي. لقد أضعت ألف ليرة من جراء ثرثرة هؤلاء النساء. وفضلاً عن ذلك فقد آويت الآن لصًا في منزلي.

الحارس

أتعلمون ما السبب في كوني أميل إلى الوحدة؟

هذا ببساطة يرجع لأن الناس يشاكسونني بسبب منظاري وصوتي المخنث الذي يجعلني أتلعثم في الكلام عندما يأخذني الحماس. ولهذا فعندما عرضت على الشركة أن أعمل حارسًا لأحد مستودعاتها وكان يقع على مسافة تقرب من خمسة عشر ميلاً في شارع سالاريا قبل ذلك دون مناقشة.

وكان المستودع يقع في واد واسع تحيط به تلال جرداء وخضراء فلتتخيلوا معي حظيرة جرداء غبراء ذات أربع جوانب في قاع الوادي لها سور متاخم يتألف من الطوب الجديد المكدس بعضه فوق بعض وعدد من الأكواخ الطويلة الخفيضة المستندة إلى السور وفي وسط كل منها برميل ملتو تعلوه أنبوبة صرف شديدة الانحناء. وفي داخل هذه الأكواخ خليط من كل شيء. فهناك غرائز الأسمنت وأطوال من الأنابيب وبلاط الأسمنت وبراميل القار وأكداس من عروق الخشب والآجر. وكان أحد هذه الأكواخ يستخدم كمسكن لي. وهو يتألف من غرفتين عاريتين بهما سرير صغير ومنضدة وبضعة مقاعد.

وكان يبدو لي في هذا المكان إنني أعيش في قلب الريف بعيدًا عن العالم ولكن ما كان علي في الحقيقة إلا أن أتسلق أحد التلال المجاورة حتى أرى عن كثب شارع سالاريا ممتدًا في خط مستقيم بين صفين من أشجار الدلب المخططة باللون الأبيض المتعرج. وكانت ترى على مسافة قصيرة من الطريق

لافتة "أوستيريادي كاشياتوري" حيث كنت أتناول وجبات الطعام. وكان في عهدتي مسدس وكمية معينة من الذخيرة وبندقية رش كنت أذهب بحت أحيانًا للصيد في التلال. ولم يكن أحد سواء ولا عمل إلا أن أقوم بجولاتي الليلية.

وقضيت أربعة أشهر في هذا المكان دون أن يحدث شيء. وذات مساء سمعت طرقة على الباب. فذهبت لأفتحه معتقدًا أنه لابد أن يكون شخصًا ينتمي إلى الشركة ولكنني وجدت نفسي وجهًا لوجه أمام رجلين وامرأة وكنت أعرف أحد لرجلين معرفة حقة. كان يدعي رينالدي ويعمل سائق لوري وكان هو وحده دون سواه الذي لا يشاكسني بسبب منظاري وصوتي عندما كنت أعمل في أحد المخازن في المدينة.

وكنا كلانا على طرفي نقيض فكان هو يبدو سيدًا مهذبًا في حين أبدو أنا جلفًا فظًا. وكان هو وسيما شديد السمرة طويل القامة قوي البنية بينما كنت أنا دميم الخلقة. وكذلك فإنني لم أكن أجذب النساء في حين كان يتمتع هو بقدر ما يشاء من النساء. ولعل شغفي به كان يرجع إلى هذا السبب أيضًا ألا وهو شدة اختلافه عني ورغبتي في أن أقتدي به وكانت معه امرأة تدعي آميليا وكانت قصيرة القامة ممتلئة الجسم ذات وجه بيضاوي شاحب وعينين نجلاوين يكيل لونهما الرمادي إلى الشحوب وفم يلتوي طرفاه إلى أعلى وكأن الابتسامة لا تفارق شفتيها.

أما عن الرجل الآخر فكان ينتمي إلى مونتروتوندو" ويدعى "تيودورو" وكان ذا شعر أحمر مموج وعينين صفراوين كعيني القط وأنف مدبب ووجنتين حمراوين وكأن ريحًا شمالية شرقية كانت لا تفتأ تهب على وجهه. قال رينالدي

إن لديه ما يريد أن يقوله لي فسمحت له بالدخول في الكوخ حيث قال لي بعد أعطائي سيجارة: "فنسنزو. أمامك فرصة للإثراء قليلاً دون مشقة.. وذلك في الواقع عن طريق مواصلة عملك كحارس" ففتحت عيني على سعتهما ولكنني أفه بشيء. ولما شجعه صمتي أردف يقول موضحًا أن لديهم كمية كبيرة من الأشياء – ولنقل إنهم نقلوها – من أحد الأكواخ إلى أن يديروا أمر نقلها بعد ذلك في الوقت المناسب. وعندئذ يعطونني منها حصة معينة.

وانتابتني الحمى من أعلى رأسي إلى أخمص قدمي عند سماعي هذا الاقتراح ولكنني لم أستطع له رفضًا. فقد كان رينالدي في نظري بمنزلة الأخ. فتلعثمت قائلاً: "والآن أنصت إلى رينالدي. أنا الحارس هنا. أليس كذلك"؟ فقال: "نعم بالطبع". فقلت: "حسنًا. أنا الحارس هنا وأريد أن أظل كذلك". فقال: "ماذا تعني"؟ فقلت: "أعني إنه يمكنك أن تفعل ما تشاء. يمكنك أن تضع ما معك في الكوخ ويمكنك أن تغدو وتروح.. ولكني لا أعلم شيئًا عن هذا.. فأنا لم أرك ولا أعرفك.. وإن حدث عن طريق الصدفة العارضة إن سألوك عني فيمكنك أن تقول إنك لا تعرفني... أعني أنك وضعت هذه الأشياء دون علمي" فأومأوا برؤوسهم في دهشة.

وقال تيودورو فيما يشبه التهديد: "ولكنك سترعى هذه الأشياء. أليس كذلك؟ فربما حدث مثلاً إنك لما كنت لا تعرفن.." ولكن رينالدي قاطعة قائلاً: "أنت لا تعرف فنسنزو. فلا حاجة بك إلى القلق". فقلت مرة أخرى: "أنا الحارس هنا.. حسنًا إذن فسأكون الحارس على أشيائكم أيضًا" فعاد تيويدورو يزمجر في وجهي قائلاً: "لا حاجة بك إلى القلق. فستأخذ نصيبك"

فقلت امتعاض: "وأنت أيضًا عليك اللعنة لا حاجة بك إلى القلق فأنا لا أريد شيئًا منكم.. أفهمت"؟ وعلى أية حال فقد اتفقنا وخرج رينالدي ثم لم يلبث أن عاد ومعه اللوري. وأفرغوا الحمولة في أحد الأكواخ ووضعوها خلف بعض البراميل حتى إنني لم أرها ولكنهم قالوا لي إنها من المنسوجات. وقبل أن تخرج آميليا رمتني بنظرة بدا لي أن فيها شيئًا من الحب وكان هذا هو كل ما فزت به.

ثم جاءوا لزيارتي بعد ذلك اليوم ثلاث مرات أو أربعًا وكانت آميليا دائمًا في صحبتهما. كانوا يعطون الإشارة بواسطة نفير اللوري فأفتح لهم البوابة في الحال. فيفرغون الحمولة وينطلقون عائدين. ولما كنت لا أحب وقوفهم فقد احتبس في كوخي أثناء إفراغهم الحمولة, وكثيرًا ما احتدم الجدل بعد ذلك بيني وبين هذا البغيض تيودورو. فكانت سلوكه دائمًا يتسم بالغلظة والفظاظة وكنت لا أستطيع احتماله. أما آميليا فكانت لا تفتأ تبتسم لي وتخصني ببضع كلمات حانية. وقالت لي في إحدى المناسبات: "ألا تمل وحدتك المستمرة على هذه الصورة"؟ فأجبتها قائلاً: "لقد ألفتها تمامًا".

وذات يوم فتحت الجريدة ورأيت أنه ألقى القبض على تيودورو ورينالدي وكثيرين آخرين. وقد أطلقت عليهم الجريدة اسم "عصابة ثغرة الحائط" وذلك لأنهم يقتحمون المحال عن طريق ثقب الحائط من المحل المجاور. وكانوا في مناسبات أخرى يدخلون عن طريق الأقبية. ولكنهم كانوا دائمًا يصنعون ثغرة. ونشرت الصحيفة صورًا لرينالدي وتيودورو ورجل آخر مرفوع الذقن واسع العينين للغاية لا يرتدي ياقة على قميصه. وقالت عناوين السطور "عصابة خطيرة من المجرمين تساق إلى المحاكمة" ولكن جريمة رينالدي

كانت أخف وطأة من الآخرين بصفته سائقًا للوري. أما آميليا فلم يأت ذكرها قط.

كان الوقت شتاء. وذات ليلة بينما كان المطر ينهمر والريح تعصف والفناء الخارجي أشبه ببحيرة سمعت طرقة على الباب. فذهبت لأفتحه وإذا بآميليا واقفة بالباب في حال ما أتعسها! لقد صارت حاملاً منذ أن رأيتها وكان بطنها قد تضخم وبدا وجهها الجميل بأكمله قد سحب إلى أسفل نحو بطنها. وفضلاً عن ذلك فقد غمرتها مياه الأمطار حتى بدت وكأنها ترتدي خرقًا بالية كما التصق شعرها كله بوجهها.

دلفت إلى الداخل وناولتني رسالة من رينالدي دون أن تفوه بكلمة، أخبرني فيها بأنه سيطلق سراحه من السجن بعد سنة وأنه في تلك الأثناء يأتمنني على آميليا مع دفع مبلغ معين لقاء إعالتها. كما طلب مني أيضًا أن أرعى الأشياء التي كانت كلها تخصه وذلك لأن الآخرين كانوا قد أخذوا حصتهم من قبل. وكان هذا هو كل شيء. وقد لفت نظري اقتناع رينالدي بأنه يستطيع ائتماني على كل شيء. كما لفت نظري أيضًا أنه محق تمامًا في هذا لأنني أحسست باستعداد لأن أفعل من أجله كل شيء. فقلت لآميليا أنها ستنام تلك الليلة في فراشي وإنني سأدبر أمري بوضع الوسائد على الأرض في الغرفة الأخرى. وهكذا بدأت حياتنا معًا.

ومنذ ذلك اليوم ولمدة بضعة أشهر كان كل من يأتي إلى المستودع يظن حتمًا إنني تزوجت وإنني أب وزوج سعيد. فكانت شمس أكتوبر تفترش الفناء بينما تجلس آميليا في وسطه مشمرة عن ساعديها الجميلين الممتلئين وهي

تغسل قمصاني وتنظفها في ماء البرميل. كما نشرت ملابس أخرى على الحبال لتجف. وكنت أجلس على مقعد في الشمس خارج الكوخ وقد تدلي بين ذراعي طفل آميليا الذي سمته باسمي "فنسنزو" وعلى مقربة من الكوخ كان هناك كوخ آخر صغير شيدته بنفسي وكانت تفوح رائحة الصلصة التي توضع على المكرونة لأن آميليا وهي تحدثني مبتسمة حينذاك كانت تطهو الطعام لي ولم أعد أذهب إلى المطعم.

وكما قلت كان كل من يراني أداعب الطفل ويرى آميليا وهي تحدثني مبتسمة في هدوء أثناء غسلها الملابس في البرميل يحسبنا أسرة سعيدة. ومع ذلك فلم يكن هناك شيء من هذا البتة. فقد كان الطفل ملكًا لرينالدي. وآميليا ملكًا لرينالدي والأشياء المخبأة ملكًا لرينالدي. أما أنا فكما كنت من قبل حارسًا على ممتلكات الشركة فقد صرت عندئذ حارسًا على ممتلكات رينالدي أيضًا في ذلك آميليا والطفل.

ومع هذا فقد كنا من جميع النواحي الأخرى نبدو وكأننا في الحقيقة زوجان. فقد كانت آميليا تحسن معاملتي للغاية ولا تقبل أن ينقصني شيئًا ما. أما الطفل فقد كان مهذبًا وجميلاً للغاية. ولم يكن يعيب حياتي وقتئذ إلا شيء واحد أن كان ذلك عيبًا وهو إنني كنت مرغمًا على أن أحدث آميليا طيلة الوقت عن رينالدي فقد كانت تحسب الشهور والأيام انتظارًا ليوم خروجه من السجن. ولم يكن ذلك لأنني أضيق بالحديث عنه ولكن الوضع يختلف بين الزوجة والصديق وفضلاً عن هذا فقد كان يبدو لي وكأنه الرجل الوحيد في العالم. أما أنا فلا وجود لي.

وقد قلت لها ذلك ذات مساء. ومنذ ذلك اليوم بدأت تخزني وخزات خفيفة في موضوع الحب وكأنها اكتشفت لأول مرة إنني رحل أيضًا. وكان ذلك على سبيل المزاج فحسب ولكنني كنت أتألم له وأدركت إنها كانت في نظري جذابة للغاية, وفي النهاية قلت لها في إحدى المناسبات: إنك تخصين رينالدي فيحسن بك إلا تلتفتي إلى. فأجابتني قائلة:

– لا شك إنني أخص رينالدي ولكنك صديق وفي ولا يجب أن تكون غيورًا وكانت هذه خاتمة الحديث.

وذات مساء خيل إلي إنني سمعت ضوضاء. فنهضت من فراشي وتناولت مسدسي ثم خرجت من الكوخ. كانت ليلة مقمرة حتى بدا لي أن القمر قد هوى في ماء البرميل الذي راح يتلألأ كالفضة. وكان من الممكن أن يتبين الإنسان كل حجر وكل حصاة في الفناء. وبجانبها ظلها كبيرًا كان أو صغيرًا. وكانت التلال المحيطة جميعًا تبدو سوداء وهي تنعكس على صفحة السماء الصافية وفي الواقع فإن النور المنتشرة كان أشبه بضوء النهار. ولذلك فإنني لم ألبث أن عثرت عليه في الحال. ودعوته أن يقف في مكانه وهو يحاول التسلل بين الأكواخ فخرج على الفور إلى العراء قائلاً: اخفض هذا المسدس. ألا تعرفني؟

كان تيودورو ذلك الرجل الذي ينتمي إلى مونتروتوندو ولكنه كان قد تغير على صورة تثير الدهشة. فقد كان يرتدي خرقًا بالية وكسيت وجنتاه الغائرتان بشعر يميل إلى الحمرة وكانت عيناه الصفراوان تحملقان كعيني الذئب. قال لقد جئت لأنقل تلك الأشياء. وقد أحضرت معي سيارة في

الخارج ينتظرني فيها بعض الأصدقاء فأجبته قائلاً: "هذه الأشياء تخص رينالدي".

وبدأ الجدل بيننا وحاول هو في أول الأمر أن يغلظ لي القول ثم اقترح المناصفة ولكنني رفضت. وكنا نقف بالقرب من برميل الماء وظهر ضوء في نافذة آميليا الصغيرة حيث كانت تراقبني. وأخيرًا قلت له: ليس في وسعك أفضل من الانصراف فأجاب قائلاً: إني ذاهب. لا تقلق ثم بدأ يسير صوب البوابة. ولكنني تبعته وأنا أراقبه في حرص لأنني كنت أعلم أنه من ذلك الصنف الذي يستخدم المطواة وبالفعل فإنه قبل بلوغ البوابة هجم علي فجأة. فانسحبت خطوة إلى الخلف وأطلقت النار. ولكن هل تصدقون؟ فإنه ظل يتقدم نحوي وقد برز وجهه بعينيه الذئبتين المحملقتين واضعًا إحدى يديه على صدره في مكان الإصابة وممسكًا في اليد الأخرى بمطواة. فأطلقت النار عليه مرة أخرى. فسقط على الأرض.

وفي الصباح التالي بدأت الشرطة التحقيق واكتشفت أن أحكامًا سابقة كانت قد صدرت ضده وإنه هارب من السجن. فأرسلت إلى الشركة مكافأة لعنايتي بالدفاع عن ممتلكاتها. وقلت لآميليا: "لقد جعل مني رينالدي لصًا في أول الأمر ثم قائلاً الآن". فأجابتني قائلة:

– كان ذلك دفاعًا عن النفس ولا أكثر من هذا.

– ليس هذا إلا لغوًا. فأنا الحارس وكان من واجبي أن أطلق النار على أية حال.

وتصادف أنه في نفس اليوم الذي جاء فيه رينالدي بعد إطلاق سراحه في النهاية ليأخذ آميليا والطفل والمنسوجات أن أبلغتني الشركة بأن المستودع سوف يجرد من محتوياته ومعداته في أقرب فرصة ممكنة. وهذا فقد كان كل شيء يقترب من نهايته في نفس الوقت وإنني لن أعمل حارسًا بعد ذلك لأي شخص كانت الشركة أو رينالدي. فقد جاء ذات مساء بعد منتصف الليل ومعه اللوري. وكان رينالدي قد كتب على حاجز الريح في السيارة بحروف بيضاء "آميليا". قلت: "رينالدي. ها هي آميليا تمامًا كما أرسلتها إلي.. وها هو ذا ابنك.. والمنسوجات في الداخل. كل شيء على ما يرام كما يمكنك أن ترى" فابتسم في سعادة لوجوده مع آميليا والطفل ثم قال: "حقًا يا فنسنزو.. كنت أعلم أنني أستطيع أن أثق بك.. هذا جميل", ولكن راودني شعور هو مزيج من الغضب والحزن وأحسست بأنني لاهث الأنفاس فرددت قائلاً: "رينالدي. يمكنك أن ترى أن كل ائتمنتني عليه أرده لك تمامًا كما كان".

ثم أراد أن يعطيني بعض النقود وحاول جاهدًا أن يهديني ساعة واقترح أن يأخذني معه في اللوري إلى روما ولكنني رفضت كل شيء وقلت: "أنا لا أريد شيئًا. فأنا الحارس. أليس كذلك" وأدركت عندئذ أنني مغرم بآميليا وراودني في نفس الوقت شعور بالأسف والفرجة لأنني احترمتها. ولقد حملت الأشياء بنفسي في اللوري ثم استقل السيارة هو وآميليا التي كانت تبتسم وهي ممسكة بالطفل بين ذراعيها مندثرا ببطانية. ثم صاح بي قائلا في غير ما حقد على ما اعتقد: "إلى اللقاء قريبًا سيدي الحارس أليس كذلك"؟ ثم تحرك اللوري.

وبعد بضعة أيام وصلت لوريات الشركة. وحملت بالطوب وغرائز الأسمنت والأنابيب وبراميل القار. ثم هدموا الجدران المحيطة وأخذوا أحجارها أيضًا. وفي النهاية تحول انتباههم إلى الأكواخ فأخذوا ألواحها. وظلت اللوريات تغدو وتروح وسط سحب الغبار وهي تحمل حينًا وتنقل حمولتها حينًا آخر طوال النهار مدة أيام عديدة.

وذات صباح هدموا كوخي في النهاية ونقلوه هو أيضًا. ولم يبق هناك سواي ولم يبق شيء وقتذاك إلا الأرض الفضاء المستوية المعبدة التي بدأ يكسوها العشب. وكانت ترى هنا وهناك شظايا من الطوب المحطم وبرك من الماء تحيط بها التلال من جميع الجهات. لقد قضيت ما يقرب من عامين في هذا المكان وعندئذ انتهى كل شيء. ووضعت كل ممتلكاتي في حقيبة من النسيج وحزمتها على مقعد دراجتي. ثم دفعت الدراجة أمامي إلى الخارج ومشيت على قدمي تجاه شارع سالاريا. وما إن بلغت الطريق الرئيسي حتى ركبت الدراجة وسرت في بطء متجهًا نحو روما.

الممرضة

كنت أمتلك مشتلاً في جاردن سيتي، وكنت في كل صباح، وأنا في طريقي إليه مخترقًا بالأتوبيس شارع نومنتانا من أن أنظر إلى البوابة الحديدية لفيلا معينة تقع تمامًا خلفه كنيسة القديسة آجنيز حيث كنت أعمل بستانيًا بضع سنين. وكنت أنا الذي أغرس بها تعريشات الياسمين على الجدار المحيط. كما كنت أنا الذي أنسق تلك الأصص الكبيرة التي تحمل زهور الكاميليا حول الأرض الفضاء المواجهة للباب الأمامي وأنا الذي سحب نبات الوستاريا ليتسلق جدار المنزل وهو الآن لابد بالغ الطابق الثاني إن لم يكن قد ذلك ومات.

وفي الواقع فإن مرض صاحب الفيلا كان سببًا في إهمال الحديقة حتى بدت أقرب إلى مقلب للقمامة منها إلى حديقة. ولكنني بدافع من حبي للممرضة التي كانت تعني بهذا السيد حولتها بعد بضعة أشهر إلى شيء أشبه بالمستنبت ذي المروج الخضراء والممرات المغطاة بالحصباء ومجموعات من شجيرات الليلق وسياج مشذب من شجر البقس حول أحواض الزهور وعلى جانبي الممرات.

كما أذكر أنني غرست في وسط قطعة من الأرض في مواجهة نافذة غرفة "نلا": تمامًا شجرة مانوليا تامة النمو من ذلك النوع المعروف باسم "جراندا يفلورا" حتى ينفذ أريج الزهور إلى غرفتها رأسًا في وقت الربيع. وكذلك زرعت أسفل النافذة تبات الجابونيكا الجميل المتسلق ذا الأغصان السوداء والزهور الحمراء.

وكانت"نلا" تلك الممرضة التي أغرمت بها فتاة قوية البنية متوسطة القامة حمراء الشعر يكسو النمش وجهها العريض العض وتضع على عينيها منظارًا لضعف بصرها. ولقد أعجبت بها في الحال لقوة بنيتها وسلامة صحتها, فقد كان جسمها وافر النمو حتى بدا دائمًا وكأنه لابد أن ينشق عنه زيها الأبيض فينبثق خارجًا منه. كما استهواني مظهرها الهادئ ونظرتها المدركة اللذان يضيفهما عليها نمشها ومنظارها. فكانت تبدو وكأنها طبيبة. وفضلاً عن ذلك كله فقد كان التناقض بين مطهرها القاسي وجسدها الغض الذي يضج بالحيوية هو ما كان يفقدني صوابي.

عندما كانت صحة ذلك السيد الذي ترعاه أكثر أهمية عندي من صحتي، لأنني كنت أعلم أنه إن تحسنت صحته أو وافاه الأجل رحلت "نلا" ولت يتيسر لي أن أراها بعد ذلك. لهذا فقد كنت كل صباح لقاء ذلك الربيع أدبر طريق ما للوقوف أسفل نافذة الغرفة التي رقد بها المريض مباشرة، وذلك لكي أسألها فور خروجها إليها مطلة على الحديقة قائلاً: "كيف حاله"؟ فتجيبني بإيماءة من رأسها قائلة: "حسنًا نوعًا". وكانت تعلو وجهها ابتسامة ماكرة لأنها كانت تدرك السبب فيما كنت أشعر به من قلق.

وغالبًا ما كنت أراها أثناء الصباح في نفس النافذة دائمًا وهي تصل الدواء في كوب أو وهي تفحص الإبرة قبل حقنه – فأشير لها بيدي ولكنها لم تكن تريد على أن تهز رأسها وكأنها تقول لي: "ألا يمكنك أن ترى إنني في غرفته"؟ فقد كانت في عملها أكثر إخلاصًا من الرجل. وكانت تستغل عملها في مكر حتى لا أنقطع عن التنهد تمامًا كما تفعل بعض الفتيات عندما يدخلن دائمًا أمهاتهن على مضض منهن في كل أمر من الأمور ساعيات بذلك إلى

أن يضيفين عن أنفسهن مزيدًا من الأهمية وفي الواقع فهي اللائي يتصرفن في خجل وتحفظ..

وكنت خلال الصباح أوفق عادة في قضاء وقتي في الأرض الفضاء المواجهة للمنزل ولكي أكون تجاه نافذة غرفة المريض. أما بعد الظهر فكنت أذهب للعمل في الطرف البعيد من الحديقة حيث كانت هناك مساحة كبيرة من الأرض خلف غيضة من أشجار البلوط تقوم فيها نافورة عند الحائط المتاخم للحديقة وذلك لعلمي أن المريض كان ينام بعد تناول الغذاء وكانت هي تنتهز تلك الفرصة لتراني.

ففي حوالي الساعة الثانية أو الثالثة بعد الظهر كانت تأتي إلى هناك في معظم الأحيان حيث تمكث معًا ساعة أو بعض ساعة. وكنت ألتقط لها زهرة أو اثنتين من شجرة الجاردينيا أو الكاميليا أو الورد. وكانت تشبكها في صدر زيها إرضاء لي. ثم تجلس على حافة النافورة حيث كنت أبثها وجدي وهيامي. فقد كنت مغرمًا بها حقًا وصارحتها منذ اللحظة الأولى برغبتي في الزواج بها. فكانت تنصت إلى دون أن تفتح فاها وقد ارتسم على وجهها ذلك التعبير المدرك.

قلت لها: نلا.. أريد أن نتزوج وأن ننجب عدد كبيرًا من الأطفال فنأتي بطفل في كل عام.. أنت تعلمين كم سيكون جمالهم فأنت حسناء وأنا لست دميم الخلقة. فضحكت وقالت: "ما أتعسني"! وكيف نعولهم؟.. فأجبتها قائلاً: "إني سأعمل.. فأنا أريد أن أنشئ مشتلاً.."فقالت: "ولكنني أحب أن أظل ممرضة. فأجبتها قائلاً: "ممرضة! ستكونين زوجتي". فقالت: "أنا لا أريد

أطفالاً بل أرغت في أن أكون ممرضة. أما أطفالي فهم المرضى "ولكنها كانت تبتسم وسمحت لي بأن أمسك يدها. غير أنني ما أن حاولت تقبيلها بعد قليل حتى دفعتني بعيدًا في الحال ونهضت واقفة على قدميها وهي تقول: "يجب أن أذهب إليه". فقلت: "ولكن ربما كان نائمًا". فقالت: "نعم.. ولكنه أن استيقظ من نومه ولم يجدني فسوف ينزعج للغاية بل قد يكون في ذلك القضاء عليه. فهو لا يريد سواي بجانب فراشه". وكنت أمقت المريض في مثل هذه اللحظات رغم أنه كان يعود الفضل إليه في معرفتي بها. إذن فقد كانت ذاهبة إليه. عندئذ كان يتولاني الغضب فأمسك بالجاروف وأخرج الحصى بقوة تنفجر لها التربة بالحصى..

لم تقبلني مرة واحدة. بل كانت أحيانًا تسمح لي بأن أعجب بشعرها الذي كاد يكون هو وعيناها أجمل ملامحها. فكنت أقول لها: "دعيني أرى شعرك"؟ فنحتج في رقة قائلة: "كم أنت مزعج"!

ولكنها كانت تسمح لي في النهاية بأن أخلع منديلها الذي كانت تعصب به رأسها ثم انزع المشابك الواحد تلو الآخر فيبقى لحظة شعرها الأحمر الكثيف في شكل كتلة فوق رأسها كما لو كان تاجًا من البرونز. ثم تهزه قليلاً فيتهاوى متموجًا على كتفيها حتى يبلغ خصرها تمامًا. ثم تمكث ساكنة تمامًا تحت هذه الكتلة من الشعر وهي تنظر إلى في ثبات من خلال منظارها. فأمد يدي وأنزع منظارها في رفق فقد كان يبدو لي أن يضفي عليها أثرًا من الرياء. أما بدونه فكانت عيناها النجلاوان الرقيقتان العسليتان الصافيتان كالماء وكأنهما في حالة من الذوبان تضفيان على وجهها تعبيرًا مختلفًا كل الاختلاف، تعبيرًا يمتزج فيه الاسترخاء بالدعاء. فأحملق فيها دون

أن ألمسها حتى يتولاها شيء من الارتباك في النهاية فسرعان ما تعصب رأسها بمنديلها مرة أخرى وتضع منظارها على أنفها..

كنت غارقًا في حبها حتى إنني أذكر قولي لها ذات يوم: "وددت في وسعي أن أمرض أنا أيضًا.. إذن لكان عليك أن تعني بي". فأجابتني قائلة وهي تبتسم: "أنت معتوه.. أنت معتوه.. أتكون في تمام الصحة وتريد أن تمرض"؟ فقلت: "نعم.. وددت لو كنت مريضًا.. عسى أن تمري بيدك على جبهتي بين الحين والحين لترى ما إذا كنت محمومًا.. وتغسلي لي وجهي في الصباح بالماء الدافئ.. وأن أعوزتني الحاجة حضرت مسرعة لنجدتي ومعك مبولة الفراش وانتظرت حتى انتهى.." وقد أضحكتها هذه العبارة الأخيرة قائلة: "أنت مضحك حقًا. أتظن أننا نحن الممرضات يسرنا أن نفعل ذلك"؟ فأجبتها قائلاً: "لا.. لا أظن ذلك. فليس في هذا ما يسر كن أو يسر المرضى.. ولكنه مع ذلك خير من لاشيء"..

وثمة أشياء أخرى كثيرة يمكنني أن أقصها عليكم أن شئتم لأن أتفه الأشياء في الحب كما هو معروف تبدو على جانب من الأهمية وخاصة إذا ما توقف الحب في أولى مراحله كما هي الحال معي ولم ينجح قط في الوصول إلى النتيجة التي يحن إليها وعندما سمعت أن المريض كان يسير في طريق التحسن وإنه لن يلبث أن يغادر الفراش زاد إلحاحي في موضوع الزواج.

ولكنها ظلت تراوغني فتفهمني في أول الأمر أنه ليس ثمة ما تعترض عليه في شخصيتي ثم تعود فتقول لي أنها لم تكن تحبني بالقدر الذي يكفي للزواج بي. وظننت أن ذلك ربما كان هو التردد الذي يسبق الاستسلام النهائي كما

تترنح الشجرة قبل سقوطها بعد أن يتم نشرها وذات مساء تركتني لاهثًا عندما قالت لي في هدوء: لم لا تأتي الليلة أسفل نافذتي؟.. بعد منتصف الليل.. حيث يمكنني أن نتجاذب أطراف الحديث..

وفي ذلك المساء اختبأت في الحديقة وانتظرت حتى منتصف الليل وأنا جالس على حافة النافورة خلف غيضة البلوط. وعندما حل الموعد المضروب ذهبت إلى أسفل نافذتها وأطلقت صفيرًا كنا قد اتفقنا عليه. فما لبث مصراعًا النافذة إن فتحًا في الحال وظهرت هي كالشبح الأبيض في فتحة النافذة السوداء وهمست قائلة: مد لي يدك.. أسرع!

ولم يكد يتسع لي الوقت لأستعد حتى كانت قد تسلقت قاعدة النافذة وسقطت بي ذراعي. وكدنا نتدحرج سويًا على الأرض لشدة ثقلها ولكننا تماسكنا وسرنا فوق الشرفة في محاذاة حائط المنزل. وقالت لي في صوت خفيض: حسنًا.. والآن يا ليونلو هل أنت واثق حقًا من رغبتك في الزواج بي؟

ولما كانت لهجتها التي نطقت بها هذه الكلمات لا الكلمات نفسها أكثر رقة من أي وقت مضى فقد سقطت على ركبتي تمامًا حيث كنت وأحطت ساقيها بذراعي ورحت أضغط بوجهي على قماش وزرتها الخشن. وأمكنني أن أشعر بيدها وهي تربت على رأسي وحدثت نفسي قائلاً في هدوء تام رغم تأثري الشديد في أعماق نفسي: حسنًا ها نحن أولاء وليكن ما يكون ومع ذلك ففي تلك اللحظة تمامًا بلغ أسماعنا رنين جرس في غرفتها. ولو كان هذا النداء من أحب أحبائها لما أمكن أن تكون أكثر سرعة واستجابة. قالت: أسرع.. أسرع. ودفعتني بعيدًا عنها حتى كدت أسقط على الأرض

قائلة: أسرع.. إنه يناديني.. أسرع.. أعني على العودة من خلال النافذة. واستمر رنين هذا الجرس اللعين. فاندفعت نحو النافذة وعاونتها على تسلقها ثم تلاشت وما لبثت أن رأيت ضوءًا يظهر في نافذة غرفة المريض مما دلني على أن "نلا" كانت معه ولأول مرة راودني شعور بالغيرة..

لست أدري ماذا حدث في تلك الليلة في غرفة ذلك الرجل, ولكن "نلا" لم تظهر في نافذتها في الصباح التالي ولم تأت بعد الغداء إلى مكان لقائنا المعهود عند النافورة. ومرت ثلاثة أيام أو أربعة على هذه الصورة, وذات مساء رأيتها في النهاية ولكنها لم تكن وحدها. كانت تمشي بجانب المريض وهو يتوكأ عليها عبر الأرض الفضاء أمام المنزل.

كان رجلاً في منتصف العمر مفرطًا في الطول شاحب الوجه مائلاً إلى الشقرة مرتديًا بيجامته وكان كتفيها متكئًا عليهما. بينما أمسكت هي به من حول خصره في وداعة وحب وراحت تنظم خطواتها لتتناسب مع خطوته. وتولتني الدهشة عندما رأيتهما فانتظرت حتى اختفيا حول زاوية المنزل ثم اتجهت صوب أحد الخدم وكان هو يراقبهما من مكانه فوق عتبة الباب الأمامية، فأشار لي وكأنه يقول: لقد وقع كل منهما في حب الآخر.. ولكنني تظاهرت بعدم الاكتراث وسألته عكا حدث. فعلمت أن حديثًا كان يدور في الفيلا حول اتجاه نية رب الدار فعلاً إلى الزواج من "نلا".

وأصارحكم أنني لم أستعلم أكثر من ذلك. فقد عرفت إنها لا تختلف عن كثير غيرها من النساء وإن المال في نظرها كان أكثر أهمية من الحب. ولما كانت ميالاً إلى العمل بسرعة فور الساعة ولا احتاج في بعض الحالات إلى

التفكير الطويل لاتخاذ قرار ما فقد حزمت أمتعتي في ذلك اليوم وغادرت الفيلا على ألا أعود إليها مطلقًا..

وكنت كلما فكرت في نلا بعد ذلك بزمن طويل تمثلتها زوجة لهذا السيد وخيل إلى أنها لم تعد تقيم في الفيلا كممرضة بل كربة للدار. كما كان يخيل إلي أنه لو عاوده المرض لما عادت تعني به بكل هذا الحب. فإنها بترملها تكون قد حققت في النهاية الغرض من زواجها به. ولكن قد يخطئ الظن أحيان بأن الناس لا يعيشون إلا من أجل المصلحة الشخصية أو الشعور وحدهما دون غيرهما. فهناك من لا تقودهم المصلحة الشخصية ولا يدفعهم الشعور بل ينقادون لدافع آخر خاص بهم تمامًا ولا يدركه سواهم. وكانت تلا من بين هؤلاء.

فقد ذهبت بعد مضي سنتين إلى الفيلا التي تقع فوق تل جانيكولام حيث استدعيت لإنشاء مستنبت لنباتات المناطق الحارة. وبينما كنت أنظر في الردهة أحسست بجو غريب من الحرص والحذر يكاد يكون كالحزن أو الحداد. فقد أغلقت جميع النوافذ وساد الهمس ودأبت حركة الغدو والرواح وانتشرت رائحة المطهرات واختنقت الأصوات.

وفجأة رأيتها عند قمة الدرج في زي التمريض تمامًا كما رأيتها في آخر مرة وقد وضعت منديلاً فوق رأسها ومنظارًا فوق أنفها وصينية بين يديها. كانت تهبط الدرج ولذلك لم يكن هناك مفر من ملاقاتي. وما أن اقتربت مني حتى توقفت وقلت لها في لهجة كانت مزيجًا من الحزن والمشاكسة: "أما زلت ممرضة يا نلا؟.. ألم يكن من المفروض أنك تزوجت". فارتسمت على شفتيها

تلك الابتسامة الهادئة الماكرة التي أفقدتني صوابي ذات يوم ثم قالت: "من روى لك تلك القصة؟.. ألم أقل لك أنني لا رغبة لي مطلقًا في الزواج وإنني أريد مواصلة عملي كممرضة"؟ فأجبتها قائلاً: "يتمنعن وهن الراغبات".

والآن هل تصدقون ما حدث؟.. لقد نظرت إلى لحظة ثم هزت رأسها وأجابت قائلة: "أتعلم أن هذا المريض قد وقع أيضًا في غرامي؟.. ولكنني لا أستطيع الآن أن أخبرك بكل شيء.. ولنا حديث آخر فيما بعد إن كنت قادمًا للعمل هنا.. إن غرفتي تقع في الطابق الأرضي وتطل نافذتها على الحديقة". ثم انصرفت بعد أن رمتني بنظرة وكأنها تقول: "لقد اتفقنا.. أليس كذلك.."؟ ثم خرجت من ذلك بأنها بلا شك تجد متعة خاصة في الدخول مع المرضى في علاقات غرامية ولعل ذلك كان يرجع على وجه التحديد إلى ما كانت تتمتع به من قوة وصحة. أما أنا فقد كنت للأسف أتمتع بصحة جيدة ولهذا فلم يكن هناك أمل ما. فتخيلت عن العمل في الحال وتسللت إلى خارج المنزل على أطراف أصابعي دون أن أنتظر دعوة من أحد .

الأنف

ذهبنا أنا وسيلفانو إلى ميدان الحرية، وهناك جلسنا وأطلعني سيلفانو الجريدة على الجريدة، وقد أعلن فيها نعي تلك الشخصية الهامة الذي كتب عبر عمودين منها ثم ذكر فيه بعد ذلك أن الجنازة ستشيع في الصباح التالي وإن جثمان الفقيد سيظل معروضًا للعيان طيلة هذا اليوم في منزله وأن سجلاً سيوضح عند المدخل يوقع فيه الزائرون بأسمائهم. ثم كتب أسفل هذا بخط صغير بيان بكل ما قام به الفقيد من أعمال أثناء حياته.

ولكنني ما كدت استغرق في القراءة حتى أخذ سيلفانو الجريدة من يدي قائلاً إن الأمر لا أهمية له. وفي تلك اللحظة مرت بنا سيارة فاخرة ألقت من نافذتها فتاة شبه عارية بسيجارة لم تدخن منها إلا نصفها. فذهب سيلفانو والتقط العقب ثم عاد إلى مقعده وهو يقول أن ما يهمني في الأمر هو الخاتم الذي يضعه الميت حول أصابعه. كان خاتمًا تاريخيًا ذا قيمة عظيمة وقد حلى بزمردة أثرية منقوشة. وقد وصفه له أحد رجال الحانوتي وكان صديقًا له وقد اشترك في إخراج الجثة.

كان هذا الخاتم هدية من أحد الملوك وقد أوصى الفقيد أن يوارى التراب وهو يحيط بأصبعه. واختتم سيلفانو حديثه بقوله: إن الفقيد كان يعيش وحيدًا مع خادمته وهي لن تكون هناك في تلك الليلة بما يشبه التأكيد خشية أن ينتابها الذعر الشديد. وقد أخبره "الحانوتي" بذلك أيضًا.

ولم أفه بشيء أثناء إدلائه بمعلوماته عن المنزل والشارع ومكان الشقة. فقد كنت مشغولاً بتقليب الأمر على وجوهه وتقدير ما له وما عليه. فمن

ناحية كانت هناك تلك الفرصة النادرة في الحول على الخاتم ومن ناحية أخرى كان هناك سيلفانو وهو من أتعس خلق الله حظًا. فقد كتب النكد على جبينه. ولم يبتسم له الحظ قط إلا لينصب له شركًا فيوقعه في كارثة أشد وأدهى مما مضى.

وكان أنفه بصفة خاصة يدل على أن سوء الطالع من نصيبه. فقد كان يشبه مدق الناقوس كما كان معوجًا داكن اللون ذا عارمة في طرفه يعلوها خال قبيح أسمر اللون ويكفي منظر أنفه فحسب ليدخل الكآبة على النفس. فلتتخيلوا معي. كيف يكون الحال لو كان الإنسان صاحب هذا الأنف! فأنا نفسي فقير بالطبع ورث الهندام وقد أبدو أحيانًا كالآفاق عندما تشتد بي الضائقة. ولكنني لم أعرف قط عفن ذلك البؤس الحقير الشائع في المثاوي العامة وحساء الأديرة الذي كانت تفوح رائحته من حول سيلفانو.

ولم ألتقط أعقاب السجائر التي يلقي بها من السيارات. فكرت في كل هذه الأشياء وهو يتكلم. أما هو فقد أخذ يخمش أنفه ثم بدأ يحكه بأصبعه فعلاً من داخل أحد منخريه وكأنه أحس بأنني أنظر إلى أنفه. فحزمت أمري في الحال وقلت له: "شكرًا لك على تذكرك إياي.. ولكن الأمر مستحيل".

– لماذا؟

– لأن اثنين واثنين لا يساويان خمسة.

فرأيت وجهه يشحب ثم حنى رأسه. وبعد ذلك هل تصدقون؟ لقد بدأ يبكي. ثم نشج قائلاً: "أرأيت كم أنا تعس؟ فعندما تسنح لي فرصة واحدة مواتية لا يمكنني انتهازها".

فأجبته قائلاً: "أذهب وأد العمل بنفسك. فلن تضطر إلى مقاسمته مع أحد وبهذا تبلغ الثراء".

فاعترف قائلاً وهو لا يزال يبكي: "إني لا أجد الشجاعة اللازمة فأنا أخاف الموتى.. أما أنت فلا تخشى شيئًا وظننت..".

فقاطعته بالنهوض قائلاً له: "إن الميت في هذه الحال يجب أن يحتفظ بخاتمه". ثم انصرفت وكان ذلك اليوم عطلة أغسطس العامة. وقضيته متنقلاً من مقعد إلى آخر في مختلف الحدائق العامة. وقد خلت الأماكن من الناس: لا شيء سوى الغبار والأوراق المهملة ومظهر الصيف في وسط مدينة حزينة كئيبة كثوب منبوذ لا يرتديه أحد.

وهكذا فإنني كلما تنقلت متباطئًا من مقعد إلى آخر زاد شعوري بالكآبة حتى فاق الوصف: فأيام العطلة يجب أن يحتفي بها. وكل من لا يحتفي بها تعروه الكآبة لأنه يشعر أنه كان ينبغي أن يفعل ذلك. ولكنني كنت أعلم أنه ما من سبيل نظري للاحتفاء بالعطلة إلا بانتزاع خاتم الرجل الميت. ولكنني أدركت أنني باستغلالي ما أدلى به سيلفانو من معلومات بعد رفضي تقديم المساعدة إليه أكون بذلك قد ارتكبت معه فعلة قذرة. ومع ذلك فقد تغلبت الكآبة على التردد وحزمت أمري.

وأصارحكم القول أنني فكرت لحظة في إبلاغ سيلفانو بعدولي عن رأيي ولكنني كنت لا أعرف عنوانه. وهكذا فإن سيلفانو المسكين كان عاثر الحظ حتى في ذلك. فقد قدر له أن يلتقي بالرجل النزيه الوحيد في الميدان، ومع ذلك فإنه لم يفد من هذا شيئًا.

وذهبت إلى منزلي حيث غرفتي الصغيرة التي أجرها لي من الباطن رجل مسن كان يشتغل بقطع الرخام. وهناك أخرجت أدواتي من مخبئها وهي عبارة عن حلقة كبيرة علق بها عدد كبير من المفاتيح من مختلف الأحجام كما علقت بها أدوات من كل نوع: مسمار طويل معقوف عند الطرف. وكان هذا من اختراعي الخاصة وعتلة ومبرد من الصلب. كما أخذت أيضًا تصف رغيف من الخبز ووضعته في جيبي. عندئذ كان الوقت مساء فأخذت الترام واتجهت إلى العنوان الذي أدلى به سيلفانو.

فعثرت على المنزل بدون عناء في حي فيالي باربولي ولكنه لم يكن يبدو فخمًا أو فاخرًا فخيب ذلك رجائي إلى حد ما. كان يخيل إلى أن شخصية هامة كهذه تقطن مسكنًا لا يرقى إليه أحد. أما هذا المنزل فكان بسيطًا رغم حداثة طرازه ذا واجهة من الطرف الأحمر وشرفات بيضاء مصممة على شكل وعاء الصابون. وقدرت أن البواب في مثل هذا الوقت من النهار يكون مشغولاً بتناول عشائه.

وبالفعل فقد دلفت إلى الداخل دون أن يراني أحد واتجهت رأسًا إلى الشقة رقم ٣ حيث كان يقيم الفقيد. ولما كان الفقيد وحيدًا في الشقة فإن الباب لم يكن موصدًا بالمزلاج بل كان مغلقًا فحسب بقفل عادي. وبسرعة ولكن في غير ارتباك، جربت عدة مفاتيح إذ يقولون إن هذه الأقفال الحديثة لكل منها مفتاح خاص مختلف ولكن هذا غير صحيح. فهناك عشرون نوعًا منها على الأكثر. وفضلاً عن ذلك فالأقفال كالنساء لا يهتدي إلى المفتاح الملائم لها عن طريق العقل بل عن طريق البديهة تمامًا كوسيلة التقرب إلى النساء.

حقًا إن مفتاحًا واحدًا من مفاتيحي لم يصلح للقفل ولكنني بعد أن

جربت دسته منها عرفت بالضبط الأسنان الزائدة التي يجب أن تبرد. أقول عرفت ولكن الأحرى أن أقول "أحسست" وكأن ذلت كان عن طريق المشاركة الوجدانية فعين اللص كعين الجراح، تعرف من نظرة واحدة ما إذا كان الأمر صحيحًا أو خطأ مهتدية بأصغر كسر في البوصة.

وما أن ارتسمت في ذهني فكرة المفتاح المطلوب حتى صعدت إلى السطح متلكئًا متباطئًا. وكان يحول دون الوصول إليه باب صغير من الخشب الخشن به قفل من النوع القديم. فأدخلت فيه المسمار المعقوف حيث أمسك طرفه بحيوية اللولب وما أن لويته حتى فتح الباب. وتركته مردودًا ثم دخلت إلى السطح, وكان مستوياً حديث الطراز كالصندوق الذي لا غطاء له — عاريًا نظيفًا خاليًا لم يكدس به أثاث الحديقة الذي يمكن أن يتخذ منه مخبأ. ولم تكن به نوافذ "جمالون" ولم يكن هناك أي اتصال بالأسطح أو الشرفات الأخرى لاستخدامها في حالة الهرب.

وكان نور القمر يضيئه إضاءة ساطعة، فبدأ أشبه بقاعة الرقص. ومع ذلك فقد وجدت ركنًا مظلمًا خلف مجموعة المداخن وهناك جلست القرفصاء حيث أخرجت مبردي وبدأت أصنع المفتاح. وكنت أعرف من ملمسه كم كان علي أن أبرد. وعلى أية حال فقد كان الأمر حينذاك لا يعدو أن يكون بردًا عنيفًا فحسب. أما اللمسات الأخيرة من المبرد فسوف تعطي فيما بعد. وعندما بدا أني صنعت مفتاحًا ملائمًا فقد اضطجعت على الأرض حيث تناولت قطعة الخبز ودخنت سيجارة. كان علي أن أنتظر أربع ساعات على الأقل، فألقيت بعيدًا بعقب السيجارة وانطويت على نفسي ثم سرعان ما استغرقت في النوم.

واستيقظت من نومي بعد مضي أربع ساعات بالضبط كما أدركت أن النوم قد زادني نشاطًا، فعدت إلى الدرج تحدوني إلى الدرج تحدوني طمأنينة الموظف وهو في طريقه إلى مكتبه. كنت هادئًا رابط الجأش متزنًا صافي الذهن، فهبطت الدرج في بطء شديد إلى الشقة رقم ٣ حيث أدرجت مفتاحي. ولم يخطئني التوفيق فقد أوشك المفتاح أن يكون لائقًا للغاية. وما كان علي إلا أن أبرده قليلاً ليدور في الثقب. ثم فتح الباب في سهولة ويسر.

كانت الشقة متواضعة للغاية كما رأيت من أول نظرة. فقد كانت تتألف من أربع غرف ومطبخ ولم تكن فاخرة الأثاث مما لا يثير اهتمام اللصوص، ومع ذلك فقد كان الفقيد شخصية هامة. فهكذا قالت الجريدة في وضوح تام. وبعد دخولي من الباب الأمامي سرت في بهو كان في نهايته باب مفتوح يتسلل منه الضوء ولكنه لم يبد أن مبعثه مصباح ما. بل اكتشفت أنه ضوء القمر الساقط بانحراف إلى داخل الغرفة من خلال نافضة تطل على الحديثة، وكانت الغرفة غارقة في الظلام فيما عدا الجزء القريب من النافذة. فأخرجت مصباحي الكهربائي ورحت أديره في الغرفة لأتعرف على معالمها.

وكان أول ما وقع عليه بصري هو رفوف الكتب التي صفت بعضها فوق بعض ثم مائدة ضخمة بها حفر ونقوش وتنتهي أرجلها بقواعد كمخالب الأسد. ثم وقع بصري على الزهور. لقد كانت هماك أكداس منها من جميع الأنواع وخاصة الورود والقرنفل وزهور الجلادبولي وفجأة لمحت بين الزهور وجه الرجل الميت. كان البياض يكسو لحيته وشاربه وشعره الذي كان ناعمًا كالحرير. وكان وجهه أحمر ممتلئًا، وقد خفض جفناه اللذان أوشكا على الشفافية. كان رجلاً يناهز السبعين من العمر بدينًا مهيبًا ثريًا ارستقراطيًا.

فقد كان جثمانه جديرًا بالاحترام إذ كانت تبدو عليه العظمة. ثم حركت مصباحي في بطء ورأيت أنه كان يرتدي سترة رسمية سوداء وقد وضع عبر واجهة قميصه البيضاء وشاح اجتمع فيه اللونان الأحمر والأصفر. كما عقد بعناية أسفل لحيته الفضية المدببة رباط عنق أبيض. ثم سقط الضوء على يديه الحمراوين النظيفتين النمشاوين إلى حد ما اللتين اعتنى بأظافرهما حيث ظهر الخاتم في الحال حول بنصره المتورمة إلى حد ما فقد كانت زمردته الخضراء تتلألأ في الضوء. فوضعت المصباح في يدي اليسرى واتكأت إلى الأمام ممسكًا بالخاتم بين أصبعي وبدأت أديره لأخرجه. فلم يخرجه فجذبته جذبة قوية، فإذا به يسقط في يدي.

ومع ذلك فقد بدا لي أن استخدام القوة قد شاب مظهر الجثة على صورة ما. فرفعت المصباح وبالفعل كان الرجل الميت عندئذ قد فغر فاه وكان يمكنك أن ترى بوضوح أسفل شاربه الكث عددًا من الأسنان الذهبية. وفي هذه اللحظة بالذات انبعث صفير خافت جفلت له. فاستدرت في التو هناك في النافذة، بل على قاعدة النافذة في الواقع، رأيت وجه سيلفانو وكان مشهدًا مضحكًا. كان يحملق في مباشرة وهو أشد شحوبًا من الجثة نفسها. قال فيصوت خفيض: "آه. إذن فقد جئت".

لقد حدث كل هذا في لحظة. وفي تلك اللحظة قررت أن أكذب عليه. فأجبته قائلاً: في هدوء تام: "نعم جئت.. ولكنني لم أجد الخاتم" فأتى بوجهه حركة قبيحة ثم همس قائلاً في صوت مختنق: "هذا محال: فأجبته قائلاً: "تعال وانظر بنفسك" ثم سحب نفسه بيديه إلى أعلى متجشمًا بعض المشقة حتى أمكنه أن يجلس على قاعدة النافذة. ثم استدار وهبط على قدميه في داخل

الغرفة. فألقيت بشعاع مصباحي على يدي الرجل العاريتين دون أن أنبس بكلمة، فقال في الحال وهو يرتجف من أعلى رأسه إلى أخمص قدمه: "لقد أخذت الخاتم.. فإني أرى أن يديه قد حركتا من مكانهما".

فقلت: "لا تكن أحمق" فقال: "نعم. لقد أخذته.. أيها اللص" فقلت: حذار مما تقول، عندئذ لم يحر جوابًا بل اندفع نحوي محاولاً أن يمسك بجيب سروالي، حيث كنت في الواقع قد وضعت الخاتم. فخطوت إلى الخلف في الظلام قائلاً: حذار فسوف يكشف أمرنا، ولكنه بلا شك كان قد فقد صوابه تمامًا لأنه عاد فألقى بنفسه علي.

عندئذ كنت قد لاحظت عند دخولي أن هناك بابًا خلف المائدة وخيل إلي أنه يؤدي ردهة المدخل. لذلك فقد درت حول المائدة بينما ظل هو يتقدم نحوي مادًا يديه إلى الإمام ليتحسس بهما طريقه. ثم أسرعت أنا بفتح هذا الباب ودلفت إلى الداخل. ومع هذا فقد استطاع أن يرى على ضوء مصباحي رغم بطئه في ذلك أن هذا الباب لم يكن سوى باب صوان للملابس وليس له منفذ آخر.

سمعت صرير المفتاح وهو يدور في القفل، بينما رحت أتلوى بين مجموعة من القبعات والسترات المعلقة على مشاجب ثم سمعته وهو يرفع صوته قائلاً: أعطني الخاتم وإلا تركتك في الداخل. عندئذ استبد بي غضب شديد لا لما حدث فحسب بل لوجودي في ذلك الجو الساخن الخانق داخل هذا الحجر المغلق. فأجبته قائلاً إنني لن أعطيه إياه. فابتعد عن الباب وسمعته وهو يدير مفتاح الكهرباء ويتجول في الغرفة. واعتقدت أنه لابد باحث عن شيء آخر

ليستعيض به عن الخاتم وقد صح ظني. فقد سمعت فجأة صرخة مدوية وصياحه قائلاً: إنه يعضني! ثم بلغ سمعي وقع أقدام وأصوات في الحديقة وأصوات في داخل المنزل، وفي النهاية فتح باب الصوان وكانت الغرفة مضاءة حيث وقف سيلفانو يمسك به الناس من ذراعيه بينما وقف أمامي رجال الشرطة الذين توقعت مجيئهم.

وأمكنني فيما بعد أن أصور لنفسي ما حدث. فقد رغب سيلفانو الأحمق التعس أن يستعيض عن خسارته بأي ثمن فوضع أصابعه في فم لرجل الميت ليخرج منه أسنانه الذهبية تمامًا كما لو كانت زهورًا يمكنه التقاطها دون حاجة إلى كلابه طبيب السنان! فأدت الجذبة القوية إلى انطباق فم الجثة مما جعل سيلفانو يصرخ رعبًا. ومع ذلك فقد فكرت في كل هذا فيما بعد ونحن في مركز الشرطة. أما في تلك اللحظة فلم أزد على أن نظرت إلى سيلفانو وهززت رأسي في غضب مكبوت. فليس ثمة ما يمكن عمله مع أنف كهذا, وتحققت من أنني أنا الملوم أولاً وأخيرًا لعدم إدراكي ذلك من قبل.

الفهرس